محمد فريد أبو حديد

آدم رُحما

طبعة خاصة بدولة الإمارات العربية المتحدة

وزارة الثقافة والتنمية المعرفة

دار المعارف
تأسست ١٨٩٠

obeikandl.com

دار المعارف
تأسست ١٨٩٠

رئيس مجلس الإدارة
سعيد عبده مصطفى

كتب ثقافية

تصميم الغلاف:
أيمن القاضى

أبو حديد، محمد فريد، 1893 - 1967.
آلام جحا/ محمد فريد أبو حديد. - القاهرة: دار المعارف، 2016.
204 ص، 19.5 سم
طبعة خاصة بدولة الإمارات العربية المتحدة
تدمك 8 8357 02 977 978
1 - الاهاجى والفكاهات العربية.
(أ) العنوان.
تصنيف ديوى: 817
رقم الإيداع: 10313/ 2016
رقم أمر التشغيل: 1/2016/32
رقم الكونجرس: 8 - 840252 - 01 - 2

لا يجوز استنساخ أى جزء من هذا الكتاب بأى طريقة كانت
إلا بعد الحصول على تصريح كتابى من دار المعارف

تم التنفيذ بمركز زايد للنشر الإلكترونى
بدار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل -
القاهرة - جمهورية مصر العربية

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج. م. ع.
هاتف: ٢٥٧٧٧٠٧٧ - فاكس: ٢٥٧٤٤٩٩٩ E-mail: maaref@idsc.net.eg

تمت الطباعة بدعم من
مؤسسة الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان
للأعمال الخيرية والإنسانية

obeikandl.com

بسم الله الرحمن الرحيم

١

مضى عليّ أربعون عامًا وأنا على هذه الأرض. وهأنذا أنظر إلى ورائى، إلى هذه السنوات الطويلة فأرى أقصاها كأنه الأمس القريب لم تمض عليه إلا ليلة. فما معنى الزمان وما معنى السنوات التى نعدها؟ ما زلت أنا حجا الذى عرفته فى سن العشرين والعشر، لم يتغير منى شيء سوى أن صلب عودى وجمدت مفاصلى وزدت فى الطول والعرض شيئًا، وما زلت أغضب وأرضى وأحب وأكره وأندفع مع حماقة البشرية كما كنت أفعل صغيرًا. إن الحكمة لم توهب للبشر وإن كانوا يدعونها.

لقد كنت أحسب أن الأربعين إذا بلغتها توفى بى على سن الكمال، فإنها السن التى كان الأنبياء يبعثون فيها. ولكنى لم أجد فى نفسى تبدلا وقد بلغتها. فما زلت كما كنت حائرًا خائبًا أهيم فى خيالى ولا أعرف من أمور الحياة أمرًا.

لقد تعودت أن أصارح نفسى ولا أخادعها وأنظر إلى عيوبى فلا أسترها، ولست أدرى كلما تأملت أحوالى أبكى أم أضحك منها.

لست أحسن فى الحياة إلا أن أهيم فيها على وجهى قانعًا بما تقع عليه عيناى من مجالى هذا الكون العجيب الذى يهزنى بجماله وجلاله. فإذا غمرتنى الهزة أنطقتنى قائلا «سبحان ربى» وأبعد فى التأمل حتى أغيب عن وعيى، والناس ينظرون إلى وهم يسعون ويكدون ويتزاحمون على ما أسميه حطام الدنيا فأراهم يمضون عنى ويبسمون سخرًا، فأوشك أن أسخر منهم وأضحك من جهالتهم ولكنى أعود سريعًا إلى نفسى فأردها عن السخرية، فإنى لا أدرى أأنا خير منهم أم هم خير منى.

وأضيق أحيانًا بما ألقاه فى مصبحى وممساى، وأنكر ظلم الأحياء وأمتلئ عليهم بالحنق أحيانًا، فإذا ما أذهلتنى ضربات الحياة وعثراتها وقفت بين الناس أضحك حتى يتحلقوا حولى ويضحكوا لضحكى. فإذا نطقت بما فى قرارة قلبى حسبوا أننى أهرف وأخلط فيزدادون منى ضحكًا. أهذا قضاء الله الذى قدره لى؟

لم يهب لى الله ما وهبه لهؤلاء الذين يضطربون فى الحياة فيصارعونها. لم يهب لى مالاً أسند إليه ظهرى، ولا حيلة أكيد بها وأعتمد عليها ولا جمالا فى خلقتى ولا بسطة فى قوتى. ولكنه وهب لى قلبًا يحس عظمته وجلال خلقه وكفانى هذا وحسبى!

ولست أملك من دنياى إلا هذه الدار التى خلفها لى أبى من تراث أجدادى. وقد كانت بها حديقة أدركت خضرتها فى صباى، ولكنها اليوم صحراء جرداء بلقع. فليس بها من آثار الخضرة إلا جذوع

كالحة ونخلات شعثاء. وقد تهدمت ساقيتها وكسرت قواديسها وانقطع ثمرها. ومع ذلك فإننى أحبها ولا أرضى أن أبيع منها قيراطًا وحسبى من الحديقة سعتها. بل إننى لست أرضى أن ينقطع دوران الساقية، فلا يزال الثور يدور بها ويعجبنى أن أسمع نعيرها إذا صفا الليل وهدأ الكون وسطع البدر، فإن صوتها يقع فى أذنى أشهى من الألحان، وحسبى من ساقيتى نعيرها وقد تهدم سور البيت فصار لا يحجب أهل الفضول ولا يمنع الدخيل ولكن ما ضرنى من ذلك والأسوار لا تقام إلا إذا كان صاحبها يخشى على ذهب عنده أو جوهر؟ وأنا بحمد الله ليس عندى منها ما ينغص على عيشى. خرجت يوم بلغت الأربعين إلى ظاهر ماهوش لعلنى أستوحى فى ذلك اليوم ما يحيل جدبى إلى خصب، أو يدخل نورًا إلى ظلام القلب. وكان الربيع يخلع على الريف رداءه، وحقول البرسيم الخضراء تتموج تحت أذيال النسيم رطبة يانعة، والفول يملأ الهواء عطرًا من نواره الجميل، ومروج القمح كأنها لوحة فنان أبدع فى مزج ألوانه فهى زبرجد فى ذهب، وحوافى النهر ترقص بما عليها من أعشاب وأزهار. فلو شئت أن أتغنى بما وقعت عينى عليه من الجمال لما أبقيت موضعًا لغيره من الحديث. وحسبى أن أقول إنه السحر الساحر وسبحان مبدع الكائنات. فسرت صامتًا وقلبى يثرثر وروحى يحلق حتى بدا لى العالم كله كأنه ذرة على ساحل المحيط، وهانت عندى الحياة وما فيها من هموم صغيرة. حقًا ما أصغر هموم الحياة!

كنت أميل إلى العود الضئيل من العشب فأرفعه إلى عينى وأحاول أن أرى ما فيه من جلال الإبداع، فيرتد عنه بصرى حسيرًا. وأرى الذبابة على العود أو البعوضة فوق الورقة أو النحلة ترف على الزهر فأتأمل الإبداع بعد الإبداع وأغمض عينى خوف أن يعشيها نور الجلال. فأصيح بغير وعى «يا الله!».

ورأيت شجرة جميز على جانب الطريق، وكنت كثيرًا ما أستريح فوقها إذا تعبت من طول جولتى. وتلك عادة تعودتها منذ صغرى، فقد طالما كنت أقضى الليل راقدًا بين الغصون كأننى بعض الطيور فى أوكارها.

وجلست أقلب نظرى فى الأفق البعيد وفى ظل الشجرة القريب، فما وقع إلا على جليل من المعانى تومض فى ومضات كنار الجبل إذ آنسها موسى. فلا أكاد أسمو بنظرى إلى قبس منها حتى يرتد طرفى كليلا.

وفيما كنت فى مجلسى أهيم فى مدارج السماء، إذ جذبتنى حركة على الأرض. فالتفت إلى الطريق فإذا بى أرى موكبًا يحيط بهودج، وهو متجه نحو ماهوش مقبلا من ناحية قصر نزهة السلطان. فكدت أصرف النظر عنه وأعود إلى هيامى فى فضائى ولكن ما أعجب الإنسان إذ ينقلب من السماء إلى الأرض يجذبه إليها عنصر الصلصال! كان الموكب باهرًا لا تقع فيه العين إلا على وهج من الحرير والجوهر أو بريق من الحديد والذهب. فخشعت فى مكانى

وجلست أرقبه حتى مر وصار الهودج حيالى. فإذا بى أرى الستر مزاحًا، وألمح من ورائه فتاة سبحان الخالق القهار! كان وجهها سافرًا عن فلقة من بدر، أبيض فى حمرة كأنه وردة تتفتح فى الربيع. وكانت تنظر إلى المروج الخضراء باسمة، وترمى بلمحات من عينين لا أستطيع أن أصور ما فيهما من حلاوة. فخفق قلبى خفقة أحسست منها كأنه غاص فى صدرى، وصحت صيحة مكتومة «أهذه علية؟» وأغمضت خشية الفتنة، ولكن عينى لم تطاوعانى - غفر الله لى - فعدت أنظر إلى تلك الخلقة البديعة وعاد قلبى إلى خفقانه وعادت إلى ذكرى عزيزة فهزهزت كيانى. إنها علية الحبيبة حقًّا. والتفتت الفتاة فاضطربت غدائر شعرها الأسود حول عنق فى بياض الزنبق ورأيت جبينها الواضح وأنفها الجميل، وكانت تزيح جانب الستر بأنامل منعمة فوقها معصم أنيق يتوهج بالجوهر. فدار رأسى حتى كدت أسقط من مجلسى، وتعلق بصرى بأعقاب الموكب حتى غاب عن عينى. فنزلت ولا أدرى إلى أين أسير، شاخصًا إلى الهودج كأننى أنجذب نحوه قسرًا. وسرح خيالى إلى أيام شبابى إذ كنت أهيم بمن استأثرت بفؤادى، علية التى بهرتنى وفتنتنى. أواه إننى لا أذكرها إلا خفق قلبى وأضاء الكون حولى. كانت علية فى شبابى علالة النفس إذا صحوت ومؤنسة الأحلام إذا أغفيت. كنت أقف الساعات أنتظر حتى تمر على، فإذا مرت سرت وراءها مباعدًا حتى تغيب عن عينى ثم أعود فأقف حيث كنت فأبقى ساعات

أخـرى حتى ترجع لكـى أتزود منها بنظرة أخرى. لشـد ما كنت سخيفًا شقيًّا إذ ضعفت وجبنت وتركت منافسى السمج يفوز بها. وا أسـفاه علىّ وعليها! فإن ذلك المنافس أشقانى وأشقاها. ما كان أشد حمقى وسـوء حظى إذ ترددت ولم أجاهـد لأنتزعها منه انتزاعًا! نعـم كنت فقيرًا وكان غنيًّا، وكنت قبيحًا وكان جميلا، وكنت هين الجـاه وكان وجيهًا. ولكنى كنت أملك حبى وقلبى وكان ذلك خيرًا لها من ماله وجماله وجاهه. ولم يمهلها الأجل فاهتصرها فى رونق الشـباب وسرت وراء نعشـها. فكان قلبى يدمى حتى شيعتها إلى قبرها. عفوك يا علية فقد كنت مذنبًا تعسًا، أو لقد كان هذا قضائى. ولقد خيل إلى بعد أن فقدتها أن قلبى قد أغلق وجمد واسـتقر على بلواه، وما كنت أحسب أنه سوف يخفق مرة أخرى. ولكنه فى ذلك اليوم خفق وتوهج فيه القبس الخابى.

لسـت أدرى: أعادت علية إلى الحياة وكانت هناك فى الهودج تمر أمامى؟ لقد رأيت فى الهودج عينيها وجبينها وغدائر شـعرها ولفتة جيدها. أكنت أهذى إذ رأيتها ولم يكن ذلك إلا خيالا؟ أم لقد مر الهودج حقًّا أمامى وبدت صورتها حيالى؟

وسـرت بين الحقول أهيم ولا أحس مواقع قدمى، ولا أرى شيئًا مما يحيط بى حتى تنبهت إلى صوت يناديني. فتلفت كأنى أستيقظ من حلم فإذا بى أرى صديقى أبا النور أمامى.

لـك الله يا صديقى! فليس لى فى ماهـوش كلها قلب أطمئن إلى رحمته غير قلبك. فلما نظرت إليه بادرنى قائلا:

– أين كنت منذ الصباح؟

فقلت فى ارتباك،

– على الأرض حينًا وفوق الشجرة حينًا.

فقال فى عطف: وإلى أين؟

فتلفت حولى، لأعرف أين – كنت، ولكن اضطراب حواسى كان يذهلنى فقلت:

– إن شئت الحق فإنى لا أدرى.

فأخذنى من ذراعى وخرج بى يسير نحو الطريق، وعند ذلك تبينت أننى كنت أسير فى حقل حديث عهد بالرى وأنا أغوص فيه وأخبط على غير هدى.

فلما صرنا على الطريق قال صاحبى:

– أتحب العودة إلى ماهوش؟

وما كنت لأنصرف عن الصورة التى ملأت فؤادى فسألت قائلا:

– أرأيت هذا الموكب الذى مر بى؟

فلم يزد على أن قال:

– نعم رأيته.

ثم سكت كأن الأمر لا يستحق إلا تلك الكلمة القصيرة. فأعدت قائلا:

– أوقعت عينك عليها؟

فنظر أبو النور نحوى بعينيه الفاترتين وقال متعجبًا:

– من تعنى؟

فانطلق لسانى قائلا: علية!

فأحسست يده تشتد على ذراعى وقال فى رحمة:

– هو موكب ابنة السلطان يا صديقى.

ثم حرك شفتيه يقرأ هامسًا.

فلم أشعر إلا وقد اندفعت أصف محاسنها، وكنت أتعجب من الحرارة التى تتدفق فى بيانى. نعم كانت نفسى تعجب من نفسى.

وزادت قبضة صاحبى على ذراعى شدة، وخيل إلى أنه يحاول أن يسندنى. فتمالكت نفسى وأمسكت لسانى، وسرت إلى جانبه صامتًا وهو يقودنى، وعدت إلى صورة الهودج أتمثلها وأتأمل محاسنها، ثم صحت فجأة:

– أهى ابنة السلطان حقًا؟

فحرك أبو النور شفتيه، ولكنى سمعته يهمس مستغفرًا.

فأعدت سؤالى عليه، ولم أرد به إلا أن أعرف إذا كان صاحبى قد رأى الموكب حقًا، فقد داخلنى الشك أن يكون ما رأيته من أشباح وهمى. ولكنه قال:

– هكذا قال حراسها.

فهدأت نفسى قليلا وعدت إلى صورة الفتاة أناجيها. وما ضرنى أن تكون تلك علية التى أحببتها فى شبابى، أو أن تكون ابنة السلطان أو غيره من الخلق فلم أكن أطمع فى غير صورتها وتلك قد احتواها قلبى وحسبى.

٢

هكذا يسقط الإنسان من السماء إلى القرار السحيق فجأة، فقد بلغت دارى ورأيت امرأتى ريمة أمامى، وما رأيتها يومًا إلا وقع فى نفسى أن صاعقة تريد أن تنقض علىّ، أو أن الأرض تريد أن تنهار من تحتى، أو أن الدنيا شعلة من النار، أو أن نورها قد أنطفأ ولفها الظلام. أين هذه الزوجة من علية التى فجعت فيها؟ المسكينة علية! أهى قد ماتت حقًّا؟ أم أنها هى التى رأيتها فى الهودج والموكب العظيم يحرسها؟ وماذا يعنينى إذا كانت هى هذه أو تلك؟ فإنما تصاحبنى صورة فى قلبى لا تتغير ولا تتبدل، وسواء على أكانت صورة ذلك الجسد أم ذاك. أين ريمة امرأتى من تلك الصورة، صورة علية، أو صورة ابنة السلطان، أو هى صورة علية ابنة السلطان فى آن؟ إن ريمة امرأتى لا تدع فرصة إلا انتهزتها لتنكيد عيشى وتسويد أيامى، فلا أراها إلا مخالفة معاندة، لا يعرف السلام سبيلا إلى قلبها. ما قلت لها يومًا هذا شرق إلا كان جوابها «بل هو غرب». وإذا قلت «هذا أبيض» قالت «بل هذا أسود. أليس لك عينان؟» وقد أقول لها يومًا مخادعًا «هذا يوم سعيد إذ أصطبح على وجهك» وأحسب أنى بذلك أداهنها وأسل خبثها، فتأبى إلا أن تجيب «أما إنه ليوم أغبر منحوس». وهى

تخالفنى فى كل شىء وفى كل معنى. فأنا رجل نحيف الجسم وهى مثل فـرس البحر كأنها تأكل مع عميان، وأنا خفيض الصوت وهى إذا نطقت كأن فى حلقها بوقًا. وأنا أحب الصمت وهى تتكلم بلسان ذى ثلاث شـعب. وأنا أحب النور وهى تهوى الظلام، فإذا فتحت نافذة أغلقتها وإذا أوقدت مصباحًا أطفأته. وإذا سـكت ثرثرت وإذا تكلمت التوت عنى فما تنطق.

وهـى فوق هذا كله تتعمد أن تكـون الحياة على غير ما أرضى، وتتعمد أن تحب كل ما أكره وتكره كل ما أحب.

كنـت عائدًا إلـى بيتى بعـد صـلاة العصر فمـررت بحانوت فاكهانى، ورأيت عنده برتقالا كأن لونه من الذهب، وكأن رائحته عطر المسـك، وكانت الواحدة منه مثـل الرمانة الكبيرة. فحدثت نفسـى أن أشـترى منه لأولادى، ومددت يدى إلى جيبى فلم أجد درهمًا. فسرت فى طريقى أحدث نفسى بذلك البرتقال ولو كان معى دراهم لاشتريت منه بعشـرة. ولما بلغت الدار كان همى عظيمًا إذ دخلـت إلى عيالى بغير تلك الفاكهة الحلوة، وأردت أن أخفف من ثقل الهم على نفسى فقلت لامرأتى:

– لقد رأيت اليوم برتقالا لم أر مثله فى حياتى.

فأجابت فى فتور: وأين نحن من البرتقال؟

ثم تنهدت.

فقلت: وكنت أحب لو اشتريت منه بعشرة دراهم، لولا أننى لم أجدها فى جيبى.

فصاحت فى غضب: عشـرة دراهم؟ أكنـت تريد أن تبدد دراهم عشرة فى شراء برتقال؟

فقلت: أما إنه لبرتقال عجيب.

وشرعت أصف لها لونه وريحه وحجمه. ولكنها صاحت بى:

– لقد عرفت أنك أحمق الرجال.

فغضبت وقلت لها:

– وما ضرك لو تفكه الأطفال مرة؟

فأخـذت تصيح بى وتسـبنى، حتـى جاء أبو النـور من بيته على صياحهـا، وأقبلت عليه أقص عليه القصـة، وكانت امرأتى تقاطعنى وتسفه رأيى. فأراد الرجل الطيب أن يطفئ نيرانها فقال لى يلومنى:

– الحق مع امرأتك. فإن عشرة دراهم لا تبذل فى شراء البرتقال لأمثالنا.

ثم أراد إرضائى فقال:

– أما كان يكفيك أن تشترى بخمسة دراهم؟

فأردت أن أهدئ المرأة فقلت:

– لا بأس يا صديقى، كانت الخمسة تكفى، ولن أرد لك قولا.

فخجلت ريمة من عنفها، وانتهزت الفرصة لترجع عن عنادها، وقالت تخاطب صديقى:

– قل له يا أبا النور أما كانت الخمسة تكفى؟

فقال لها أبو النور:

– صدقت. وقد اتفقنا جميعًا.

وهكذا سكنت العاصفة، ولكنها سكنت لكى تهب مرة أخرى أشد عنفًا. ففى ذلك اليوم جاء وقت العشاء ورأيتها تقلى بيضًا، وأنا أحب البيض المقلى إذا كان الزبد جديدًا. فقلت فى نفسى لعلها تريد أن ترضينى وتستسمحنى بعدما كان منها. وكدت ألوم نفسى على غلظتى فى مخالفتها. فلما أعدت السفرة ودعت الأولاد للعشاء نظرت إلى فى خبث ثم مدت يدها إلى علبة فيها بهار وفلفل، وأهوت على طبق البيض حتى طمسته فصار لونه أغبر كريهًا.

وهى تعلم كراهتى للأفاويه فلست أطيق حراقتها ولا أقوى على حرارتها، بل إنى لا أحب ريحها وأكره النظر إليها وأعتقد أن الله لم يخلقها لخير أبدًا، وأنه لا يبارك فى زراعتها ولا فى تجارتها وأن الأرض التى تنبتها لن تصيب إلا الذل وأن القوافل التى تحملها لا يبارك الله فى دابتها.

فلما أردت أن أردها عن خبثها قلت لها:

– إن هذا البهار يحرق حلوق الأطفال.

وبدأت أزيحه بلقمة عن وجه البيض فصاحت بى قائلة:

– قلت لك دعه فلا طعم لهذا البيض إلا بفضله.

فصحت قائلا:

– أما تشفقين على هؤلاء الصغار؟

وأشرت إلى الأطفال وكانوا يأكلون ولا يبالون شيئًا.
فضحكت ساخرة وقالت فى قسوة بالغة:
- دع الأطفال فما تشفق إلا على حلقك.
فلم أجد بدًا من القيام وأنا أغلى غيظًا.
هذه هى ريمة امرأتى التى سودت أيامى. فلم يكن لى من حيلة إلا أن أخرج إلى فناء البيت لأتبرد فى هواء الليل من همى. وكان ضوء القمر يلف الأرض فى غلالة رقيقة، فيجلو أرجاءها فى رفق، لا يقسو عليها ولا يتدسس إلى خفاياها. هناك يستطيع الإنسان أن يهيم فى عوالم الآفاق والسموات فى النور الخافت، فيرى فى شعاعه الضئيل رقص الجان وعربدة العفاريت ومحاورة الأشباح وزيارة الأرواح إذ تهبط كلها إلى الأرض تحت أضواء القمر، وتعبث وتنساب فى الأفق الغامض آمنة من النورالباهر الفاضح.
وفى ذلك الليل الساجى رقدت مستلقيًا على ظهرى ناظرًا إلى الفضاء الذى لا نهاية له، فكأننى انمحيت فيه وفنيت، أو كأن الوجود كله قد انمحى وفنى فىّ، فلم يبق من الوجود إلا ما بين جنبى، أو لم يبق منى إلا هذا الوجود الصافى.
ورأيت النجوم الصغيرة تومض بشعاعها الضئيل، وكأنها ترسل حديثها الصامت من وراء الفضاء فى جوف العماء، تحدث بأسرار الكون الأزلى وتخبر عن القرون الخوالى حديثًا قصيرًا لا يزيد على لفظ «كانوا». فإذا ما سألتها عما وراءها وما يحيط بها، وعن

حقيقتهـا وهل بها أحياء مثلـى أو فيها ملائكـة لا تعرف هموم الإنسان. وإذا سألتها عن الكرسى الأعظم الذى يسعها، لم أجد منها جوابًا إلا لمعة تلمعها كأنها تجيب قائلة: «اخسـأ». فلا يسـعنى إلا أن أقـول «أيها العقل قف مكانك ولا تقلق هذاالكون السـرمدى بثرثرتك». وطرقت أذنى أصوات منبعثة من الساقية الصغيرة التى فـى فناء دارى، فتذكرت ذلك الفناء الذى كان فى أيام أبى بسـتانا يانعًا. لشـد ما تغير البسـتان على يدى فأنا لا أصلح شيئًا ولا أصلح لشـىء! كانت هذه الساقية تدور كما تدور الآن، وكانت ترفع الماء من قرار البئر فتروى به الشـجر والزهر. ولكنها عقمت فهى الآن لا تخرج ماء. أيها الثور الناعس المستسلم امض فى دورانك فليس كله عبثًا. أليس هذا الصوت الذى يدوى فى سكون الليل لحنًا يحيى هذا الفضاء الرهيب؟ ماذا يعنيك إذا كانت السـاقية ترفع ماء يروى النبات أو لا ترفع من الماء شـيئًا؟ حسـبك من الدوران هذا النعير الذى يتردد فى سكون الليل فيكسبه جلالا ويملؤه خشوعًا. حسبك هذا الغناء الذى يشبه الترتيل والتسبيح، ولا تكن أيها الثور أحمق مثل هذا الإنسـان الـذى لا يتحرك إلا لمطمع فـى الحياة. إنك لن تصيب مـن الحياة إلا ملء مذودك من التبن أو الحشـيش. كان كل شىء هادئ فى ذلك الليل يبعث على السلام والسمو، فأحسست وأنا مستلق على أرض الفناء الواسع أن بالحياة أنغامًا متناسقة، ونسيت كل ما مر بى من الهم. الحياة حلوة لمن اسـتطاع أن يكشف ما فيها

من حلاوة. ولو لم يكن فيها سوى أن تستلقى على ظهرك فى ضوء القمر كما فعلت، وتتأمل صور الكون الذى حولك، أو التى فى حنايا صدرك، لكان هذا حسبك. هناك يستطيع الإنسان أن يجد السعادة فى السلام الشامل.

وذهب خيالى إلى ابنة السلطان – أو هى علية ابنة السلطان. نعم هى علية لأننى لم أعرف اسمها، ولا بأس علىّ إذا مزجت اسم علية الحبيب بشخصها. وهناك استطعت أن أعيش حينًا معها لا تفرق بينى وبينها تلك الفوارق التى تحجبها عنى إذا ما طلعت الشمس. هناك لم أشعر بقوة السلطان ولا عظمته. هناك عند السماك التقيت بعلية ابنة علاء الدين بعيدين عن الأرض الضيقة وجهلها وسخفها.

لقد سمع الناس عن حبى وضحكوا منى وسخروا. نعم سمعوا به وسمعوه منى. وهل علىّ من بأس إذا جهرت بحبها وسمعت أصداء ترديدى لاسمها؟ إن كل ما عندى كريم نبيل صريح، فقلت وتحدثت وسبحت، وسمع الناس قولى وسخروا منى. ولكن ماذا يعنينى منهم إذا هم سخروا وضحكوا. وقد أفضى صديقى أبو النور إلىّ بما يقولون، وعنفنى على مجاهرتى بحبها، وقال إنى أعرض نفسى للهلاك إذا أنا تماديت فى ذكرها.

يعجب الناس منى، ويقولون إنى صعلوك أتطاول على مقام لا ينبغى لى أن أتطاول إليه. حقًّا إنى فقير ولست أدعى الغنى،

وضعيف الجاه ولست أدعى القوة، ولكنى مع ذلك أدرك ما يفوت عقول هؤلاء. إن الأسرار تتفتح لى وينابيع الآيات تتدفق فى صدرى. ولست أعبأ بشىء مما يرغب الناس فيه، ولا أرهب شيئًا مما يرهبون، فما الذى يمنعنى أن أتطلع إلى من أريد؟ وما الذى يلومنى الناس فيه من حب علية ابنة علاء الدين؟ أيلومنى الناس على أننى أسبح الله فى حبها؟ لست أتطلع إلى شىء غير صورتها، ولن يستطيع أحد أن يحجب عنى العوالم التى أكشفها من تأمل حبها.

إننى أسمو بذلك الحب كما يسمو العابد فى صلاته. وهل الحياة كلها جسد ومادة؟ إن روحى تهيم وتستطيع أن تقضى الأيام والليالى فى الأفق الأعلى، تتغذى من ذلك الشجن الطاهر الذى يشملها، وتتصفى من ذلك الهيام الحار الذى يصهرها... يا علية ابنة علاء الدين!

لن أكف عن التطلع إليك والتسبيح باسمك والتماس الحياة العليا من محبتك، وإن لم تقع عينى عليك مرة أخرى.

■■■

٣

لو استطعت أن أقضى كل حياتى فى أحلامى لكنت رجلا سعيدًا. ولكـن أنى لى ذلك وأنا إنسـان لابد لى من أن أصحـو ومن أن أرى وأسـمع وأسـير؟ أنى لى أن أعتـزل فى أحلامى وأنـا مرتبط بهذه الأرض وبأهلهـا ممن هم قريبون منى ومن هـم بعيدون عنى؟ ولو كنـت وحيدًا معتزلا لهان علىّ الأمر، ولكنى أعيش فى الناس ومع الناس ولاسيما إذا كانت لى امرأة مثل ريمة.

لقد سـمعت امرأتى بما يقوله النـاس عنى فى حب عليّة، وكنت أحسب أنها إذا سمعت ذلك أصلحت من شأنها وقومت من اعوجاجها، ولكنها ما كادت تسـمع ما يقوله الناس حتى ركب الشـيطان كتفيها كأعنـف ما ركبهما منـذ عرفتها. فلم تدع نوعًا مـن أنواع الأذى إلا ألحقته بى، ولا صنفًا من صنوف الخبث إلا صبته على رأسى. وأرادت فوق كل هذا أن تذلنى فأذاعت هى الأخرى أنها قد عزمت على الزواج من السلطان نفسه.

لكم ضحكت عندما سمعت الناس ينقلون إلى قولها! ريمة تريد أن تتزوج من السلطان! لم يثر قولها فى إلا ضحكًا.

فلمـا رأت أن قولهـا لم يثـر غيظى، عمدت إلـى حيلة خبيثة للانتقـام منى، فأثـارت ضجة يتحدث بها العاطلـون فى ماهوش يومًا بعد يوم وشـهرًا بعد شـهر. فإنها أذاعت فـى الجيران أنها

قد عزمت على الانتحار. لو كان أمرها قد أدى إلى غايته لكان ذلك قضاء الله وانتهى إلى نهايته. والزواج من مثل ريمة ما هو إلا سباق على الموت بين الزوجين. فإذا كان لابد من الموت فليكن لها هى إذا شاءت. ولكن ريمة لم تهتد إلى ما يجب عليها أن تفعل، وقنعت بأن صاحت وسبت واصطرعت وتخبطت، ثم خرجت من الدار تجرى. ولم أدر ما كان قصدها من وراء هذا كله، فتركتها وقعدت فى الدار هادئًا، وأحسست أننى استطعت أن أتنفس حرًّا، وقد هدأ الجو بعد خروجها.

وانصرفت إلى صورة علية ابنة السلطان أناجيها، فلم أشعر بشىء حتى سمعت هيصة عالية وأصوات ولولة تطرق أذنى. فشردت أفكارى وقمت فزعًا، فإذا بالحارة قد غصت بمن فيها من رجال ونساء وأطفال وشيوخ. وما كادوا يروننى حتى علت منهم صيحة عالية «الحق يا جحا».

فدهشت لهذه المفاجأة ولم أفهم المقصود من قولهم، وماذا الذى ألحقه؟ إننى رجل لم أستطع فى حياتى أن ألحق شيئًا، فكيف لى أن ألحق شيئًا لم يقدر كل هؤلاء على أن يلحقوه. ووقفت ثابتًا أقلب فيهم بصرى.

فصاحوا بى مرة أخرى صيحة أعنف وأكثر حنقًا. ففتحت عينى وفمى وأشرت بيدى مستفهمًا. فعلت منهم صيحة ثالثة فقالوا: «الحق امرأتك!» فانطلق لسانى قائلا: «وكيف ألحقها؟».

فاختلطت الأقوال ولم أعرف كيف أجيب. قال قائل: «الحقها عند النهر» وقالت جماعة: «إنها غرقت» وصاح آخرون: «قد دقت علينا الأبواب» وقال شاب خبيث: «أتتزوج عليها؟ أما تخجل؟» فاندفع النساء يصرخن فى وجهى: «يا سم! أغرق نفسك وراءها يا قاتل».

فلم أملك نفسى وشعرت كأننى أجرمت، وعلانى خجل واضطراب، واندفعت بين الجمع فإذا بى أنساق مع تيار جارف من الناس حتى بلغنا جانب النهر. وتفرق الجمع كل فى جهة، فبعضهم يجرى على الشاطئ، وبعضهم يخلع نعليه فيخوض فى الماء، وصاحت امرأة: «غوصوا فى الماء فإنها تحته بلا شك». وصاحت أخرى: «بل لقد حملها التيار معه، فانحدروا أسفل النهر».

وصاحت ثالثة سليطة اللسان: «مالك واقفًا يا جحا كالحجر؟ انزل إلى الماء وابحث عنها».

ولكنى كنت أعلم الناس بامرأتى ريمة. فإن الناس إذا أرادوا الغرق قذفوا بأنفسهم فى الماء، وأما هى فلم يكن عندى شك فى أنها تفعل غير ذلك. والناس إذا غرقوا نزلوا إلى القاع ولكنها لا يمكن أن تغوص. والتيار يحمل الغرقى معه إلى أسفل النهر، ولكنها إذا غرقت لم تنس العناد، فلا شك فى أنها تجعل التيار يحملها مكرهًا إلى أعلى النهر. هذا ما أعرفه فى امرأتى. ولذلك لم أبال شيئًا مما قاله الناس، ونزعت نفسى من بينهم، وأخذت أعدو نحو أعلى النهر. فلحق بى شبان منهم يريدون أن يردونى إلى

ناحية أسفل المجرى، ظنًّا منهم أننى أخطأت فى اتجاهى، وظن بعضهم أننى قصدت الهروب. فصحت فيهم وقد غضبت:

– دعونى أيها الحمقى، فأنا أعرف منك بامرأتى. إنها إذا أرادت الغرق فلن تتجه إلا نحو منبع النهر.

وكان الموقف لا يحتمل ضحكًا ولا فكاهة، ولكنى سمعت من الشبان ضحكًا كأننى كنت أمازحهم. فزاد غضبى ونزعت نفسى من بينهم وجريت نحو أعلى النهر، وتركتهم فى شغل من ضحكهم يعيدون كلماتى ويتفكهون بها.

ولما وجدت نفسى وحيدًا سرت على مهل، وتنفست مرتاحًا، وجعلت أقلب وجهى فى شطئان النهر، وكانت الأعشاب تغطيها غضة خضراء، والزهر يوشيها والطير يزقزق فوق أغصان الصفصاف والسرو. وكان جمال المنظر يبعثنى على إطالة السير، ولم يخل قلبى من خطرات خطرت عليه من ذكر الحبيبة ابنة علاء الدين. وفيما كنت سائرًا أجيل بصرى فى هذا الحسن الباهر لاح لى سواد تحت شجرة على نحو مائة ذراع منى. فظننت ذلك إنسانًا وقصدت إليه لعله رأى جثة ريمة امرأتى صاعدة فى النهر. وما كان أشد عجبى عندما بلغت الشجرة إذ وجدت أن ذلك السواد هو امرأتى ريمة نفسها، وكانت جالسة على الشاطىء تدلى رجليها فى الماء وتحك قدمًا على أخرى وفى يدها قطعة من قثاء تأكلها. فلم أتمالك أن صحت بها حانقًا:

– لقد صدق ظنى!

فالتفتت إلىّ وكان وجهها يشع شماتة وخبثًا وصاحت:

– أى ظن هذا الذى صدق؟

فقلت غاضبًا: كل الخلق يغرقون فى الماء وأنت تغرقين فوق الشط. وكل الغرقى يحملهم التيار إلى أسفل النهر وأما أنت فإنك تصعدين إلى أعلاه.

فقامت واثبة واستعدت لهجمة من هجماتها، ولكنى كنت ثائرًا والشرر يتطاير من عينى. فصحت بها:

– هلمى!

فلم تجرؤ على مهاجمتى وسارت ورائى فى انكسار، حتى عدنا إلى القوم. وكانوا لا يزالون يبحثون عنها فى الماء متجهين إلى أسفل النهر خطوة خطوة. فلما رأونا مقبلين سارعوا إلينا، واختلطت أسئلتهم حتى لم أسمع منها سؤالا. فقطعت عليهم سبيل الفضول وقلت لهم فى حزم:

– لقد كنت أعلم منكم بامرأتى.

فسكتوا ونظروا فى شىء من الغيظ إلى ريمة، كأنها قد خيبت أملهم فى غرقها. وسرنا فى موكب متهامس حتى بلغنا ماهوش، وعدت بامرأتى إلى دارى.

هذه هى امرأتى التى لا تخجل من أن تضع نفسها إلى جانب صورة ابنة السلطان – صورة الملك الكريم الذى أسبح معه فى أعلى

الملكوت مترنمًا بالترتيل والتسبيح. هذه هى امرأتى التى لا ترضى أن يمـر بى يوم بغير أن تدخـل علىّ حزنًا جديدًا. هذه هى امرأتى التى لو شـئت أن أثبت على القرطاس ما أعانيه من سـوء عشرتها لضاقت بى الصحف وتكسرت الأقلام وجف المداد.

وليتها إذ تنغص علىّ عيشى بخلافها وسوء عشرتها تعرف شيئًا من معنى الكرامة أو الصدق. لقد عرفت من النساء من يشبهنها فى حمقها وشراسـتها، ولكنى عرفتهن يندفعن مع ما فطرهن الله عليه من حدة الطبع والسـلاطة وعرفت اندفاعهن صريحًا بسيطًا لا التواء فيـه. فلهن العذر فيما لا حيلة لهن فـى خلافه. ولكن ريمة امرأة تسـتطيع أن تضحك وأن تمرح، وهى ذات حظوة عند لكيعات أهل الحى. فإذا اجتمعت بهن أو اجتمعن بها شغلن الملائكة فى إحصاء حماقاتهـن، وأحفين أقلامهـم فى كتابة أوزارهـن. وهى إذ تريد أن تمـلأ قلبى غيظًا تدبر لغيظها تدبيـرًا، وتمكر وتحتال وتحكم مكائدها فى براعة توحى إليها بها شياطينها.

وهى فى كل مكرها تتعمد أن تذلنى وأن تجعلنى للناس سخرية وتعين أشياعها من الشياطين على أن يهزأوا بى من وراء ظهرى.

هـذه هى ريمة امرأتى التى حكم القضاء على أن أقيم معها تحت سقف واحد، وأن تكون لى منها ذرية تشاركنا ما نحن فيه من شقاء. فكيف أسـتطيع الحياة على مثل هذا؟ لمن شـرع الله الطلاق إذا لم يكن قد شرعه لمثلى ومثلها.

أيها الناس مـن كان منكم زوجًا لمثل امرأتى ريمة فليطلق. لقد عزمت على الطلاق ولن أعيش مع ريمة بعد هذا أبدًا.

ولكـن أواه من قلبى، إن لى ولديـن من ريمة، وما ينبغى لى أن أشقيهما بشقائى. عفوك يا عجيب ولدى وعفوك يا جميلة ابنتى!

■■■

obeikandl.com

٤

كلما تذكرت ولدىَّ كاد قلبى يتقطع رحمة لهما ورقة، ولن أقطع مـا بينى وبين ريمة من أجلهما. إنهما بهجة عيشـى لا بهجة لى غيرها سوى ذلك الخيال الذى يملأ قلبى من علية ابنة علاء الدين. فلأجعل هؤلاء عزائى، ولأتحمل ما اسـتطعت تنكيد امرأتى وسوء عشرتها. أى جميلة ابنتى! إنك قطعة من كبدى، وحسبى أن أقول مـن كبدى. وأنت يا عجيب ولـدى. إنك الحبيب الخبيث معًا. وإن خبثك ليحلو لى وإن كنت فى بعض الأحايين أضيق به ذرعًا. وولدى عجيب من تلاميذ هذا العصر الحديث الذين يعتقدون أنهم ناشـئة جيـل جديد قد تقدم، وأصاب غير ما أصابت أجيال آبائه من الذكاء والعلم. وهو مثل أبناء جيله يسـىء الظن بجيل الآباء بقدر إحسانه الظن بنفسـه. ولا عجب فى ذلك فإنه أمر تقضى به سنة الكون منذ خلـق الله جيلا بعد جيل. فـكل جيل يبدأ فى تحصيـل المعرفة، فيظن أنه قد أوجد تلك المعارف أول مرة. وكل منها يذوق أول طعم تجارب الحياة فيكون كل شـىء عنده جديدًا فيحسب أنه قد كشف شيئًا لا عهد لأحد به من قبله. فلم لا يكون ابنى كذلك؟ لست ألومه علـى ذلك الوهم فهو أمر طبيعى، سـبقته إليه ألوف من الأجيال. وكلما رأيته منتفخًا بأوهامه تبسمت، وتذكرت أحوالى إذ كنت فى

مثـل سـنه، وأرد له دين الرحمة الذى كان لأبـى فى عنقى. هكذا نحن نسدد ديون الآباء للأبناء.

ولـو كان عجيب ابنـى يقنع بسـوء الظن بجيل أبيـه لوافقته واستحسنت صنعه فقد عاشـرت هذا الجيل وعرفته معرفة لم تتح لابنى. وكلما مرت الأيام بى زدت يقينًا أن هذا الجيل خلقة شـاذة من السـخف والجهل. ولست أبرئ نفسى فأنا كذلك خلقة شاذة من هذا الجيل، فأنا شاذ فى جيل شاذ. ولكن المصيبة الكبرى أن ابنى يحسـن الظن بنفسه وبأبناء جيله، مع أنى لا أرى إلا زيادة متصلة فى التخليط والخبط.

وقد ولع ابنى بما يسميه الأدب، واستهتر به استهتارًا عظيمًا، حتـى بلغ به الأمر أن صـرف همه إليه ولم يبال ما يكون حاله فى مسـتقبل أيامه. حقًّا إننى لم أصنع فى حياتى ما أحمده وقد تركت نفسـى أتخبط مع الأيام فلم أحسـن عملا ولم أستطع شيئًا وشهدت على نفسـى بأننى لا أصلح فى صنعة. ولكنى مع ذلك لا أريد لولدى ما جربت أثره فى حياتى. على أن ولدى قد فهم من الأدب القشـور وغاب عنه اللباب. رأيته يومًا يشترى معجمًا، ثم رأيته يقبل عليه كلمـا وجد فراغًا، فيحفظ من ألفاظه كل ما شـذ واسـتعجم. وتعود بعد ذلك أن يستعمل تلك الألفاظ فى كتابته وحديثه وولع بعبارات يجمعهـا فى قراءته من كل ما هب ودب من كتب هؤلاء المسـاكين المخدوعيـن الذين يحسـبون أن الأدب لا يزيد على طمس المعانى

وإلقاء الألفاظ سحبًا سوداء عليها تجعلها غامضة مبهمة. فإذا قرأ القارئ مثل هذه الكتب لم يدرك لها معنى فلا يسعه إلا أن يتهم نفسه ويسيء الظن بفهمه، ويدفعه اليأس إلى أن يقول مع القائلين إن هؤلاء الكتاب من نوابغ الأدب. ولقد طالما صدع عجيب رأسى بما يقذفه عليه من عبارات هؤلاء البائسين. فهو يتغنى بالضوء الذى يداعب أعطاف السماء وبالنشوة التى تتمشى فى الظلال الناعمة، وبالسحر الذى يتموج فوق مجالى النبضات اللانهائية. وقد كنت ليلة جالسًا وحدى فى حديقة دارى، أتمتع بضوء القمر الزاهى فسمعت ولدى يتغنى بأبيات مما يسمونه الشعر وكان لابد لى أن أسمع غناءه وإنشاده، فقد كان الليل ساجيًا ليس فيه ضجيج أحتمى فيه من السماع. وما أزال إلى اليوم أقشعر كلما مرت أصداء تلك الأغنية بخاطرى. كانت شيئًا لا معنى ولا وزن له، ووالله لو كان ذلك شعرًا لاستطاعت كل عنز فى حقول ماهوش أن تكون شاعرة.

كان عجيب يتغنى بشىء مثل هذا:

الشجر والطير والسحاب والنور والحب والضباب

فشعرت بدوار فى رأسى وغصة فى حلقى وصحت به: «اخرس».

ولكن الخبيث أقبل نحوى فى حماسة شديدة، وجعل يرجمنى رجمًا متصلا بإنشاده حتى أوشكت أن يغمى علىّ. ولم أستطع أن أصرفه عنى إلا عندما قلت له:

– هذا مدهش فاذهب إلى أمك لتدخل به السرور على قلبها.

وقد عرف عجيب ابنى بالنبوغ فى الأدب بين لداته وتمكن منه الوهم فاعتقد أن الله قد وهب له من فضله ما لم يهبه لسواه. وجعل يسألنى عن أسماء شياطين الشعراء ليختار له واحدًا من بينهم ظريف الاسم كريم السابقة.

وكثيرًا ما أفضى إلىّ بأمله فى أن يكون كبير الأدباء فى جيله. فتأخذنى الشفقة عليه فأهز رأسى صامتًا. فليمض كما شاء الله له ولا حيلة لى فى صرفه عن وهمه، والزمن وحده كفيل بحل مشكلات الحياة. إن تيار الحياة يحمل الإنسان فى سبيله كما يريد هو لا كما يريد الإنسان. ولا عجب إذا كان ابنى يصبح كبير الأدباء فى عصره فإنى رأيت العصر يصير من فساد إلى فساد ولعل هذا الأدب الممسوخ يكون فى عصره آية الإبداع فى أنظار أهله، والعبرة بأبناء ذلك الزمان لا بنا نحن. ومع ذلك فإنى لم أتمالك نفسى يومًا أن أخوض مع ولدى فى مناقشة صاخبة عندما سمعته يتحدث عن الأدب فى حماسة حمقاء. فقلت له ناصحًا:

– ماذا تريد من ذلك الذى تسميه الأدب؟ حقًا إن اسمه محبب إليكم معاشر الأبناء، لأنكم تسمعون منا أن الأدب محمود. ولكن الأدب الذى تتحدث عنه شىء آخر. فقال لى متبرمًا:

– أتظننى لا أعرف معنى الأدب؟ لقد حفظت تعريفه على شيخى، وأنا أعرف عن عظماء الأدباء أكثر مما تظن. فضحكت وقلت:

– عظماء؟ يا خبر!

فقال وقد نفخ صدره:

– بلا شك. إنهم عظماء وخالدون. وسأكون أحد الخالدين.

فقلت:

– إذن مت جوعًا.

وما كان أشد عجبى إذ سمعته يقول:

– فليكن، وماذا على لو مت جوعًا إذا كنت من الخالدين بعد موتى؟ إنها ضريبة العظمة. إنها ثمن الخلود.

فنظرت إليه وهززت رأسى أسفًا إذ أننى أبوه الذى جاء به إلى الحياة.

ولست أدرى من ذا الذى يلقى مثل تلك الأوهام فى عقول هؤلاء المساكين؟ أم لعلها تنبت فى الرءوس بغير أن يلقى أحد بذورها كما تنبت الحشائش على جانبى نهر ماهوش.

ولو كان أمر عجيب ولدى لا يزيد على هذا الهراء لهان الأمر عندى، ولكنه كاد يؤدى به يومًا إلى الهلاك – حماك الله يا ولدى.

كنت يومًا جالسًا فى الحديقة عند الساقية فمر بى عجيب وكان يقرأ فى معجمه. فلما اقترب منى نظر إلىّ باسمًا فى خبث. وكان ظريفًا فلم يعرج علىّ ولم ينشد لى شيئًا من تأليفه ولا من محفوظه. فلما بعد عنى لم تبعد صورته عن ذهنى، وجعلت أفكر فى حاضره وفى مستقبله وأسأل الله له الهداية. ثم جاء صديقى أبو النور فجلس

إلى جانبى وأخذنا نتحدث فشاركنى فيما كنت فيه من التفكير فى أمر ولدى. ولما رآنى لا أرضى له صناعة الأدب سألنى فى سذاجة:

– وهل اخترت له صناعة أخرى تكون أجدى عليه؟

فاندفعت قائلا فى حماسة:

– ماذا تقول يا رجل؟ لقد حسبتك أعلم بالحياة من ذلك؟ إن كل صناعة أخرى وكل تجارة غير هذه المهنة أجدى على أى شاب يريد أن يحيا. فليكن طبيبًا إذا شاء أو حجامًا أو منجمًا، فلن يزاحمه فى صناعته إلا من كان له شىء من العلم بصناعته. فالناس يفتحون أعينهم ويسألون عن الطبيب قبل أن يسلموا إليه أبدانهم للعلاج، ويسألون عن الحجام قبل أن يأذنوا له بأن يسيل الدم من عروقهم، ويسألون عن المنجم قبل أن يعطوه أجره على تضليلهم. أو فليكن فقيهًا فإنها تجارة رابحة ولن يزاحمه فيها إلا من كابد مشقة الحفظ وأعمى عينيه من طول القراءة. أو فليكن خبازًا فالناس لا يتدسسون بين الخبازين إذا لم يكونوا قادرين على صناعة الرغيف. فليكن أى شىء من هذا أو غير هذا لأنه عند ذلك يصير صاحب حرفة محدودة معروفة، لها قيود وفيها أسرار تمنعها عن الدخيل وتحميها من الدعى. ولكن لا يبلغن به السفه أن يدخل برجليه إلى تلك الرملة الخوانة التى يسمونها صناعة الأدب.

وقد نسيت فى حماستى أننى أخاطب صديقى، وحسبت أننى أتحدث إلى نفسى لا يسمعنى أحد غيرى، ولكنى شعرت فجأة بهزة فى ساعدى. فتنبهت فإذا أبو النور يقول لى:

– أقول لك أما تسمع؟

فسكت وتلفت حولى فطرقت أذنى صرخة مكتومة كأنها خارجة من بطن الأرض. فقمت مع صاحبى نركض باحثين عن مبعث الصوت فى أنحاء الحديقة، فلم نجد شيئًا. واتهمنا أسماعنا وعدنا إلى الساقية نلقف أنفاسنا. وهممت أن أسأل صديقى عن رأيه فى الأشباح التى ترفع أصواتها فى الليل هل يمكن أن تصرخ فى وضح النهار، وإذا بالصراخ المكتوم ينبعث مرة أخرى كأنه يصعد من تحت أقدامنا. فنظرت إلى صديقى مدهوشًا وهمست:

– بسم الله الرحمن الرحيم.

ولكنى رأيته يذهب إلى شفة البئر تحت الساقية وينظر من فوهتها. فسرت وراءه وأطللت برأسى فماذا رأيت؟ كان هناك رأس ولدى عجيب فوق سطح الماء، وهو يحاول أن يسند نفسه على الجدار الأملس ويضطرب برجليه فى الماء. وسمعته يصيح:

– الوهس! الوهس! الوحى الوحى، الجدار المتلمس يحاور كفى وسراب الماء يداعب أنفاسى والهلاك المشمخر يراود أجلى.

وكان يريد الاستمرار فخشيت عليه وصحت به:

– اخرس، ماذا الوهس وماذا الوحى؟ وما ذلك الذى يداعب ويراود ويحاور؟

فرفع رأسه نحوى وقال متحديًا:

– لقد رأيت الوهس قبل سقوطى فى البئر ومعناه الجرى السريع. وأما الوحى فمعناه العجل، وأما الجدار المتلمس الذى يداعب يدى فهى عبارة رائعة نقلتها عن الأديب الكبير...

وأراد المضى فى قوله فصحت به مرة ثانية:

– دع هـذا وقل لى أيـن الحبل؟ أين الحبل الـذى كان هنا على بكرة البئر؟

فقال فى انكسار:

– هو الذى انقطع بى وأهوانى فى ثبج!...

فقاطعته قائلا: قلت لك اخرس.

ثـم نظرت حولى فلم أجد شـيئًا أنقذه به، حتـى وقعت عينى علـى عمامة صاحبى فنزعتها عن رأسـه ثم نزعت عمامتى وأخذت ما حولهما من اللفائف، وساعدنى صاحبى على برمها حتى صارت كالحبل شدة ثم دليناها إلى الولد فأمسك بطرفها وتعاونا على رفعه حتى أخرجناه وهو مثل القط الغارق.

وأخذ صديقى لفافته وهو صامت فعصرها ونشرها، وأما أنا فسرت عارى الرأس مع ولدى حتى بلغنا البيت ودفعته إلى أمه قائلا:

– أصلحى أمره واعتنى به حتى لا يفجع الجيل الجديد فى كبير أدبائه.

فنظر إلى الخبيث وهو يرتعد من البرد وكاد يرد على جوابًا لولا أن اصطكاك أسنانه لم يساعده على الكلام.

ورجعـت إلى صديقـى فوجدته لا يـزال يهز أطـراف لفافته ليجففها. فداخلنى إشفاق عظيم عليه وقلت فى حرارة:

– أشكرك يا صديقى فلولاك لهلك ولدى.

فقال أبو النور:

– لم ألاحظ شبهه بك إلا اليوم.

فلم أدر ماذا حدث بى عند ذلك، ولكنى شعرت بالضحك يغلبنى وكان ضحـكًا متصلا معديًا بغير شـك. فما مضـت لحظة حتى كان أبو النور يضحك معى وهو يهز أطراف لفافته بيديه.

■■■

obeikandl.com

٥

كنت أسير فى طريق ماهوش – وما أعجب طرق ماهوش! ففيها النقيضان الجمال والقبح والغنى والفقر والنظافة والوسخ والفن والفوضى – ورأيت فيما رأيت كلبًا مسكينًا نستطيع أن نعد أضلاعه البارزة من تحت جلده. وكان كل شىء فيه يستدر الرحمة. وكان كلما اقترب منه إنسان انحرف عنه مسرعًا يتمايل من الضعف، وقد وضع ذيله بين فخذيه، فقد تعود النفور من أشباح البشر. وكان فى ركن الطريق كوم من الزبالة اعتاد الناس أن يرموا عنده فضلات منازلهم، فاتجه الكلب نحوه يطلب منه رزقًا. مسكين أيها الكلب فإنك لا تجد فى ماهوش ملجأ آخر غير ذلك الكوم. فلما بلغ ركن الطريق رأيته فزع وتردد، فقد رأى عنده شبح إنسان. ولكنه لم يلبث أن هز ذيله وتجرأ على الاقتراب منه، إذ لم يكن ذلك الشبح سوى فتاة مسكينة مثله. فتحول نظرى إلى الفتاة، وكان وجهها أسود مما علاه من القذر، ويداها كأنهما عودان من حطب، ووجهها النحيل كأنه جمجمة فى مقبرة.

ونظر الكلب إليها كأنه يحييها تحية الصباح قائلا «يا زميلتى». فلم تخيب المسكينة رجاءه ورمت إليه بعظمة. نعم فلم تكن العظمة نافعة لها.

ووقـف الكلب يـأكل عظمته، على حين كانـت الفتاة تقلب فى الكوم باحثة عن قشرة فاكهة أو قطعة خبز أو خرقة من ثوب بال. ولم أسـتطع أن أطيـل النظر إليهما فانصرفـت وقلبى يدمى ولكنى لم ألبث أن وجدت قلبى يحملنـى إليهما. حتى إذا ما بلغت الفتاة ألقيـت إليها بدرهم كان معى، ولم أجد عندى عظمة أخرى أرميها لصاحبها. أواه. أهكذا تنطوين على القسوة يا ماهوش؟ ولما انصرفت عن الفتاة رآنى رجل يجلس فى حانوت فاكهانى قريب. فقال لى:

– ألا تعطينى درهمًا يا جحا؟

وكنت حزينًا فلم أجبه. فأعاد قائلا:

– أتؤثر النصرانية؟ إنها نصرانية تلك التى رميت إليها الدرهم.

فلـم أجبه إلا بنظرة أسـف، ومضيـت فى طريقى أفكـر فى هذه النصرانية المسـكينة. ولو ملكت أكثر من ذلك الدرهم لعدت فرميته إليهـا. إن الله يطـل علـى الكون بعيـن الرحمة لا يفـرق بين الناس والحيـوان، فلكل حى فى هـذا الوجود مكان فـى رحمته. وإذا نحن وقفنا بين يديه يوم الحساب لم يكن لنا أمل إلا فى رحمته. وما أجدرنا نحن البشـر أن نرحـم، لعلنا نكون أهلا للدخـول فى رحاب الله. أى بلدتى الحبيبة ماهوش، ألا تحبين أن تكونى أهلا لرحاب الرحمن؟

لقد عشت ما عشت فى وطنى أحب هواءه وشمسه وقمره، وأتمتع بماء نهره وخضرة حقوله وغناء طيره. ولكنى مع ذلك لم أستطع أن أعيـش بين أهله. ويخيل إلى أحيانًـا أننى قد أتيت إلى هذا العالم

لكى أكون عبرة لغيرى. لســت أصلح لشىء غير أن أعيش فى خيالى هائمًا فى عالمى، لا أبصر شيئًا مما حولى، ولا أعرف لى سبيلا فى هذه الأرض التى لا أدرى فيها إلا صورًا وأشباحًا. كاد يخيل إلى أن عالم الوهم هو الحقيقة، وأن هذا العالم الذى ألمســه وأراه وأسمعه وأذوقه ليس سوى خيال.

تصدمنى الحياة كل يوم صدمة تذهلنى، فأعود إلى عالمى الخيالى وأقنــع بما فيه مكرهًا لأنه هو العالم الذى أســتطيع أن أعيش فيه. فإذا ما حاولت أن أقترب من زحمة الناس تبين لى عجزى ونقصى.

ولــو كنت لا أحمــل إلا همومى لهان الأمر عنــدى، لأننى ألقى قضاء الله راضيًا. هكذا أنا وهذا قضائى ولا أملك إلا أن أرضى بحظى. لا أستطيع أن أكابر فى نصيبى، فأنا لا أستحق إلا هذا النصيب عند العادل المهيمن على الكون.

لو كنــت لا أعانى إلا ما يجــره عليه طبعى لهــان الأمر عندى ولكنى كلما تلفت إلى ما مضى وما حضر من أيامى لم أجد إلا أحمالا حملتها لم يكن لى وزر فيها. كانت كلها أحمالا ألقيت على كاهلى إلقاء، لأننى لم أقو على ردها عن عاتقى.

وقد شبهت نفسى بصديقى العزيز «البطل الصامت» الذى يسميه النــاس «حمارى» فهو يقضى كل حياتــه يحمل أحمالا ليس له فى حملها مصلحــة ويقطع عمره فى جهد قاطــع متصل لا يصيب منه لنفسه خيرًا.

لقد تعود الناس أن يسب بعضهم بعضًا بوصف الحمار ولهذا فلست أرضى أن أشارك الناس فى سوء الأدب فلا أسمى ذلك الحمار إلا «البطل الصامت» فهذا ما يقتضيه العدل منى. والناس يعجبون منى إذا سميته كذلك ويضحكون ويسخرون ويحسبون أننى أريد أن أسوق إليهم فكاهة. يا للغباء! ولكن ما ضرنى إذا هم ضحكوا وسخروا؟ فلعل هذا يدخل إلى قلوبهم شيئًا من السعادة البلهاء.

إن صديقى البطل الصامت أكرم عندى من كثير من هؤلاء الذين يحملونه أحمالهم ولا يتورعون عن إلحاق الأذى به ضربًا ووخزًا وشتما. وهو مع ذلك يبذل جهده صامتًا صابرًا قويًا حتى إذا ما تهدم وخارت قواه برك على الأرض وتجلد على الضرب القاسى. وهؤلاء الجيران لا يزالون كل يوم يقصدوننى لكى يستعيروا منى صديقى ليحمل لهم أحمالهم فأخجل أن أردهم. فأذهب إليه أسأله عن رأيه، فإذا بهم يضحكون منى ويحسبون أننى أمازحهم. فإذا ما رأيته صامتًا لا يجيب أذنت لهم به نائبًا عنه، فإنى أعرفه صديقًا كريمًا. ولست أظن أننى خير منه حالا. فإن جيرانى يأتون إلى فى كل يوم يسألوننى أنا أن أحمل لهم أحمالهم فلا فرق بينى وبين البطل الصامت إلا أننى أحمل أشياء من صنف آخر غير ما يحمل. ولا أذكر يومًا أن جاءنى واحد منهم ليؤدى ما عليه من دين، أو ليتطوع بإحسان أو مواساة. ووالله لو تطوعوا بالإحسان إلى لما رضيت منهم إحسانًا، فإن نفسى تأنف أن تكون يدى السفلى.

ولكنى أصف الحال كما هى وأفضى إلى هذه الكراسة بما فى نفسى. قد يكون لى على بعضهم دين فأحتاج إليه وأسعى فى طلب الوفاء، حتى لا أكلف المدين مشقة السير إلى دارى، فإذا عثرت عليه يومًا أزاغ بصره عنى كأنه لم يرنى.

كانت لى عند الشيخ عماد الدين أمانة من مالى، أقرضته إياها فى أيام محنته. فلما عادت إليه الدنيا قلت فى نفسى إن هذه فرصة لى وأنا أقاسى مر الحياة وضيقها. فلما ذهبت إليه عثرت عليه فى حلقة من الناس، يلقى عليهم درسًا. فما وقعت عينه على حتى أخذ يهز لحيته فى عنف، ويبربر كما يبربر الأسد.

ومضت ساعة حتى فرغ الشيخ من درسه، ولكنه بقى حيث كان حتى أتت طائفة أخرى فتحلقت حوله. وكان الشيخ ممن يعتقد الناس فيه، فكانوا يذهبون إليه طلبًا للبركة وإن لم يأخذوا علمًا.

فلما طال بى الانتظار ضقت ذرعًا، وثارت نفسى، وكنت أسمع حديثه على مضض ولا أفهم منه حرفًا، فقد كان الرجل يلقى هراء.

ورأيت بقائى عنده سفهًا، فإن ساعة أقضيها فى ضوء الشمس أجدى على وأشرح لصدرى. وثار غضبى فصحت قائلا:

- يا سيدى الشيخ.

فنظر إلى مغضبًا كأنه لا يعرفنى. فزاد غضبى وثار الدم فى رأسى فقلت له:

- أما تعرفنى؟ أما رأيت من قبل وجهى ولحيتى؟

فهز الشيخ ذقنه ولمعت عيناه لمعة مخيفة، ثم نظر إلى نظرة قصيرة وعاد إلى الحلقة يريد أن يمضى فى درسه.

فغاظنى ذلك وصحت به:

– لا بأس على هؤلاء إذا غبت عنهم ساعة يا سيدى. فتعال معى إلى الدار لترد إلىّ أمانتى، ولا ضير على تلاميذك أن يهز أحدهم لحيته فى مكانك حتى تعود إليهم.

ولست أدرى كيف أغضب الحق هؤلاء، وقد كنت أحسبهم يشكرون صنيعى. فقاموا جميعًا فى وجهى يشتموننى ويسفهون رأيى.

فلم أجد بدًّا من الخروج ونظر الشيخ إلى شامتًا. وانصرفت وتركته يهز لحيته هزًّا عنيفًا.

وما كدت أعود إلى منزلى حتى سمعت طارقًا على الباب، فقلت فى نفسى «من يكون هذا؟» وما فتحت المصراع حتى رأيت جارى جمال الدين يطل برأسه باسمًا. وقد كان آخر عهدى به يوم جاء يطلب منى البطل الصامت ليحمل له بعض التبن، فأذنت له به، ثم اتفق أن مررت بداره عند غروب الشمس فرأيت منظرًا يذيب القلب حسرة، إذا كان من طبعه أن يذوب. رأيت البطل الصامت المسكين واقفًا عند باب البيت وعليه حمل من التبن يبلغ علوه قامتين وقد تربعت فوقه امرأته، وكان رأسها يبلغ نافذة الدور الأعلى من الدار. وكان الشيخ وافقًا من وراء البطل الصامت يدفعه ويضربه ليدخله فى الباب قسرًا وكان يصيح به وهو يضربه:

– حاحا! يا حمار الكلب. حاحا! لعنك الله ولعن صاحبك.

وكان البطل الصامت يحاول جهده أن يدخل من الباب ولكن حمل التبن كان لا يريد أن يدخل، وكانت المرأة فى أعلاه تصيح من فوق قائلة:

– اثن رجليه حتى يبرك فيقدر على الدخول.

فلما وقع نظرى على صاحبى المسكين فى تلك الحال غضبت وجريت لنجدته. ولكن جارى لم يرض عنى إذ تدخلت فى أمره ثم غضب فأمر امرأته أن تنزل، وألق الحمل عن البطل الصامت فى حنق وهو يبرطم، ثم دفعه إلى فى غضب.

عادت إلى تلك الصورة عندما رأيت رأس جارى يطل باسمًا من وراء مصراع الباب.

ولم ينتظر حتى آذن له فى الدخول فحيا ودخل وسار أمامى متجهًا إلى المنظرة، فلم أجد بدًّا من السير وراءه، ولم أملك نفسى أن نطقت بكلمات الترحيب والتأهيل.

ولما استقر به المجلس جعل يحدثنى عن أحزانه وآلامه، وما نكبه الزمان به حتى نسيت كل أحزانى وآلامى وامتلأ قلبى له رقة ورحمة. ثم قص علىّ قصة بقرته وقد ولدت منذ ليلة، وكان ابنها عجلا مشوهًا له صورة القرد وذيل الخنزير وحوافر البغل فأحسست ألمًا ممضًا من الحزن لهذا العجل المسكين، حتى اسودت الدنيا فى عينى. ثم تنبهت إلى أن الذى يحدثنى إنما هو جارى

جمـال الدين الـذى رأيته يضرب صاحبى البطل الصامت ويشـتمه ويسميه حمارًا. فداخلنى الجحود وقلت لنفسى «ومالى أنا إذا كانت عجول الناس شائهة الخلقة؟ إن هذا لا ينبغى له أن يهمنى».

وقوانى ذلك الخاطر فقلت لجارى فى جمود:

– ليس هذا من الشأن، وإن كان لك أن تحزن عليه وتضيق به.

فدهش الحاج جمال الديـن وخجل، ولكنى بقيت على جمودى وقلت له:

– أتريد منى شيئًا يا سيدى؟ فإننى فى حاجة إلى الراحة.

فقال الحاج وقد اتسعت بسمته:

– ألا تساعدنى أيها الجار العزيز؟

فقلت فاترًا:

– إذا كان ذلك فى طاقتى.

فقال ولا يزال باسمًا:

– لا شك فى أنك تستطيع يا سيدى.

ثم طلب إلى أن أعيره (حمارى).

هكذا قال وسمى احبى البطل الصامت (حمارًا) أمام عينى.

فقلت وقد غلى الدم فى رأسى:

– سآخذ رأى «البطل الصامت» أولا.

فقال ضاحكًا: «البطل الصامت»؟

فقلت:

– نعم هــو «البطل الصامت» وأحب منك إذا عدت إلى ذكره مرة أخرى ألا تسبه فتدعوه «حمارًا».

فتبسم الرجل ولمعت عينه خبثا ثم قال:

– سأفعل يا سيدى. وإذا شئت فقم إليه فخذ رأيه.

فلم أبال خبثه، وقمت إلى المذود فمسحت رأس البطل الصامت وظهره، فرفع رأســه إلى وجعل يتشــممنى. فملت عليه وســألته بصوت مسموع:

– أتحب أن تخدم هذا الجار الذى عرفته؟

ولســت أدرى ماذا فهم البطل الصامت من قولى، ولكنه نظر إلى الحاج جمال الدين وأخذ ينهق نهيقًا عاليًا.

فقلت لجارى: إنه لا يرضى.

فقال الجار قد لمعت عيناه بخبث أشد:

– ألا تسأله عن السبب؟

فملت على البطل الصامت فهمست له همسة ثم رفعت رأسى.

فقال الحاج: ماذا أجابك؟ أراك تفهم لغته.

فلم أبال سخريته وقلت له:

– لقد قال لى إنه سمع فى صباه حكمة من شيخ فى قومه.

فضحك الرجل ضحكـــة مبتذلة، ولكنى لم ألتفت إليه وقلت فى غير تردد:

– خيـــر لـــك أن تأخذ الحكمة حيث تجدهـــا: «حمار ما هو لك ظهره شديد».

فنظر الرجل إلى نظرة تنفث ســمًّا، ثم قام ســريعًا وأدار ظهره وخرج من الدار بغير أن يقرئنى سلامًا.

ألا ليتنى أستطيع ألا أحمل سوى هموم نفسى.

ألا ليتنـــى أقدر ألا أســعى إلا لخير ولا أنظـــر إلا فى مصلحتى وتدبير أمرى.

■■■

obeikandl.com

٦

لا أجـد فى ماهـوش كلها من لـه قلب يحمل المـودة الصافية سـوى صديقى أبى النور. هو كالماء الصافى البارد إذا اشتد الحر، وكالنسـيم البليل يمسـح الجبين المحموم فى تواضع، وهو كالنور يهـدى ولا يصدم... هو روح وذكاء وخير ومواسـاة. وهو يعطى من نفسـه ولا يبدى ما ينم عن أنـه يعطى. عينـاه الغائرتان تملؤهما الرحمـة، وصوته الخافت ينبض بالإخلاص. حتى لحيته الخفيفة تبعث الثقة وتوحى بالصدق.

كنا جالسين نتحدث فى حديقة الدار – حديقتى الجرداء – ومر بنا الوقت سـريعًا كما تمر ساعات الأنس. ثم لاح رجل يخطو فوق السـور داخلا. واتجه الرجل إلى باب الدار، وكنا نجلس فى ستر بعض جذوع الشجر على مقربة من الساقية. فقال أبو النور:

– قـم إليه لعله رجل جاء يدعوك إلى وليمة، أو لعله جاء إليك بهدية أو يرد إليك دينًا.

فقلت له: أما إنك لـم تعرف الناس يا صديقى. لو كان كذلك لما تخطى السور صامتًا، ولصاح معلنًا حتى يعرف أهل الحارة فيم أتى.

وقمت مسـرعًا إلى نخلة قريبـة فاختفيت وراء جذعها، وقلت لصاحبى:

– قم أنت إليه وقل له إننى لست هنا.

فقام أبو النور يسعى إليه، وكان ضعيف البصر، فما رآه حتى كاد يصطدم به. ثم قال له فى تردد:

– جحا يقول لك إنه ليس هنا.

فصاح الرجل به:

– أما تستحى أن تكذب؟

فغضب أبو النور وقال:

– لست أكذب فقد قال لى هذا.

فقال له الرجل:

– بل تكذب فهو هنا.

ولم أطق أن أسمع هذه المحاورة السمجة، وأطللت برأسى من وراء الجذع فصحت قائلا:

– وما لجاجتك أيها الرجل فى شأنى؟ ألم تسمع ما قاله لك؟

ولكن الرجل الجرىء لم يعبأ بصياحى. فضحك وانطلق نحوى ومد يده إلى من وراء النخلة. فخجلت ولم أجد بدًّا من أن أمد يدى للسلام عليه. وما كدت أرفع عينى إليه حتى شهقت شهقة كمن رأى منظر عفريت فجأة. وصحت قائلا:

– أهو أنت؟

فقال الرجل: نعم هو أنا. أنا صديقك القديم.

وكان حقًّا صديقى القديم الحاج جمال الدين.

obeikandl.com

فقلت له مرتبكًا:

– لا مؤاخذة يا سيدى. ولكنى أرجوك إذا أردت أن أعيرك البطل الصامت...

فقاطعنى فى لهجة تنم عن خبث:

– لا تخش يا صديقى فما بى من حاجة إلى البطل الصامت.

فانشرح صدرى عندما سمعته يذكر البطل الصامت بغير أن يسميه حمارًا، ودعوته للجلوس معنا. فأخذ يثنى على ويترحم على أبى، حتى لان قلبى له ونسيت كل ما كان منه. ثم بدأ يتكلم فيما جاء له. وكان قلبى يغوص فى صدرى كلما مضى فى حديثه، حتى كاد يبلغ كعبى.

نعم فقد جاء يطلب منى قرضًا، ثلاثين درهمًا نقدًا وعدًا. فتحركت حركة مضطربة كأننى أبحث عن مهرب ألجأ إليه، ولم أجد سوى صديقى أبى النور فقربت منه ولزقت به، والرجل مستمر فى كلامه يصف شدة حاجته وصدق نيته فى الوفاء، ووعد ألا يبقى الدين عنده أكثر من أسبوع. ثم قال لى إنه فى خطر من تطليق زوجه أم ولده، إذا هو لم يجد عندى الدراهم الثلاثين، فأكون أنا السبب فى خراب بيته وتعذيب أهله وتفريق أسرته. ولست أكتم أننى شعرت بالرحمة تدخل إلى قلبى، عندما تصورت الرجل وامرأته وأولاده، وما قد أجره عليه من الويل إذا عجزت عن إغاثته. وجعلت أقلب الفكر وأتلفت حولى وأسأل نفسى عما عندى،

وأنا صامت حائـر والعرق يتصبب من وجهى ويتقاطر على جوانب جسمى.وكان ما يزيد حيرتى أننى لم يكن عندى من النقود شىء مما يطلـب منى، وما كنت أقوى على الاعتذار له بقلة ذات يدى. أأطلع الرجل على حقيقة أمرى؟ أأقول له إننى لسـت أملك من هذه الدنيا ثلاثين درهمًا؟ أأنطق بهذا معتذرًا فيحسبنى كاذبًا؟

لقد عشت حياتى أطلب الستر، وأخشى فضول الناس، وكم كابدت فى إخفاء فقرى، وكم عانيت من المشـقة فى التجمل والتعفف، ثم يجىء هذا الرجـل يطلب ثلاثين درهمًا فيفضحنى؟ هذه سـاقيتى لا تخـرج ماء، ولكنـى حرصت على أن تبقى دائـرة حتى لا يقال إننى وقفتها عجزًا. وهذه حديقتى لا تثمر، ولا أرضى أن أبيع منها قيراطًا خوف أن يشمت الناس بى. كان يكفينى من ساقيتى نعيرها ويكفينى من حديقتى اتساعها طلبًا للستر فى أعين الناس. فهل كان يجمل بى أن أعتذر للرجل عن ثلاثين درهمًا فأطلعه بذلك على رقة حالـى وقلة ذات يدى؟ هذا محال. ثم كيف أتركه يطلق امرأته من أجل مبلغ زهيد؟

فلابـد من الاحتيال فى الأمـر وإن كلفنى شـططًا. وأخذت أعد ما عندى من الأموال فلم أجد سوى الثور الذى يدور بساقيتى. فقلت فى نفسـى «أبيعه يوم السـوق وأقرض جارى من ثمنه، فأبلغ عنده عذرى، فإذا رد الدين لم أعدم ثورًا آخر أشتريه».

دارت كل هـذه الأفـكار فى رأسـى وأنا مطـرق صامت، ووجه صديقى أبى النور يحمر حينًا ويصفر حينًا، ووجهى يسـخن ساعة ويبـرد أخرى. ونظرت إلى عينى أبـى النور فرأيت فيهما دمعتين حائرتين كأنه أدرك كل ما يجول فى نفسى. فمال إلى وقال هامسًا:

– ما كلف الله نفسًا إلا وسعها، ولا يسع المقل إلا الاعتذار.

فشـجعنى قوله فنظرت إلى ضيفى وقلت مرتبـكًا. ليس عندى الآن ما تطلب يا سـيدى. فإذا كنت تنتظر على حتى أبيع هذا الثور يوم السوق..

فقاطعنى الحاج قائلا:

– ولكـن فيم الانتظار إلى يوم السـوق؟ إن الثـور الذى يباع فى السوق يمكن أن يباع لحمًا فى البيت. فأنت تقدر على بيع لحمه أقة أقة، ورطلا رطلا، ثم تربح من بيعه ما كان يربحه التاجر.

فوقعت هذه الفكرة كأنها الصدمة على أم رأسى.

أثورى يباع لحمًـا؟ أيذبح هذا الثور فى بيتى وأرى الدم يجرى مـن عنقه؟ أأراه على الأرض يتخبط ويفحصهـا بحوافره؟ لقد بقى عندى تلك السـنين كلها يدور بساقيتى ويشقى، ليطربنى بنعيرها فـى ليالى القمر السـاكنة. وأنا لا أقوى علـى أن أرى فرخة تذبح وكنت دائمًا أتعمد أن أنام يوم عيد الأضحى حتى تذبح شاة الضحية وتسلخ وتجهز للأكل. فكيف أقوى على أن أرى هذا الهيكل الضخم يخر كما يخر الجبل وينحر أمام عينى؟

لقـد كان خادمًا مخلصًا وصديقًا قويًّا؛ ولـو رأيت أحدًا يريد أن يؤذيـه لوقفت أدافع عنه إذا لم يدافع هو عن نفسـه بقرنيه. فقلت للرجل فى حزم: لا. لا. هذا لا يكون.

فقال الحاج فى إصرار:

– إذا كنـت لا تحب أن يتدخل الجزار فـى الأمر فإنى أقدر أن أذبح وأن أسـلخ. وليس عليك إلا أن تأخذ اللحـم وتبيعه. أين هذا الثور؟

قـال هذا ثم ذهب مسـرعًا إلى مربط الثور فى جوار السـاقية، فنظرت إلى صديقى أسـتوحيه ماذا أفعل، ولكـن صديقى نظر إلى متعجبًا وقال:

– أهكذا يكون الاقتراض؟

فقمت حائرًا لألحق بالرجـل، ولكن رجلى ما كادتا تحملانى، وسـار أبو النور إلى جانبى وقد أوقعت المفاجأة الحيرة فى قلبينا. فلمـا بلغنا مربـط الثور رأينا عجبًا. ولسـت أدرى كيف اسـتطاع الرجل فى مثل هذه اللحظات أن يتم كل هذا. كان الثور يتخبط على الأرض فى دمه. فغطيت وجهى بيدى وخرجت مسرعًا ولم تسعفنى الدموع، فوقفت جامدًا. وجاء أبو النور فوقف إلى جانبى.

ولما سكن الثور المسكين صاح الحاج فى وقاحة:

– ابحث لى عن سكين صغيرة لأسلخ بها.

فلم أتحرك ولم يتحرك أبو النور وصاح الرجل مرة أخرى:

– هات السكين قبل أن يبرد الثور ويفسد الجلد.

فسمعت القول وخفت أن يبرد الثور. وأسرعت إلى البيت فأتيت له بسكين فألقيتها إليه من وراء الباب، ووقفت مع صاحبى مطرقًا حزينًا.

واقترب أبو النور منى فوضع يده على كتفى وقال مواسيًا:

– لا فائدة من هذا الوجوم. سأذهب إلى المدينة لأعلم الناس بلحم ثورك ليشتروا.

وبعد ساعة كان الحاج قد انتهى من سلخه وتقطيعه، وجاء أبو النور مع جماعة من أهل ماهوش، وسمعته يحدثهم ويراجعونه. وفهمت من حديثهم أنهم يخشون أن يكون الثور قد نحر لأنه كان مطعونًا أو مسلولا.

وحلف لهم أبو النور أنه كان سليما وأنه قد ذبح ليقترض الحاج جمال الدين من ثمن لحمه. ولكن الناس لم يصدقوه. وقال أحدهم:

– ومن يدرينا أن ذلك الحاج قد قرأ اسم الله عليه؟

وأضاف آخر:

– وكيف نعرف إذا كانت السكين حادة كما ينبغى؟

وقال ثالث:

– إنها جرة ونصف جرة. هكذا ينبغى أن يكون الذبح الشرعى أيعرف هذا الرجل كيف يذبح؟

وقال صوت من أقصى الجمع:

– ما علم ذلك الحاج بالذبح؟ ألا يكون قد خنقه؟

فسمع الحاج ذلك القول وصاح غاضبًا:

– ما أطول ألسنتكم أيها القوم. أجئتم لشراء لحم أم جئتم لإقامة الحساب؟ انظروا إلى اللحم إن كانت لكم عيون.

فغضب القوم وصاح بعضهم:

– ما جئنا إلى هنا لنسمع هذا التقريع.

وصاح آخرون:

– إن النقود فى جيوبنا.

ثم انصرفوا واحدًا بعد واحد ولم ينفع إرجاعهم توسل صديقى أبى النور.

ونظرت إليهم وهم يبعدون وقلبى يكاد ينفجر. فماذا أصنع بهذا اللحم كله؟ ومن لى بمن يحمله وهو كالتل العظيم؟ وهل كنت لأتركه حيث هو لينتن ويتعفن؟ فما رأيت الناس يبلغون جانب السور حتى صحت بهم:

– هلموا أيها الإخوان عودوا كرامًا. تعالوا فخذوا اللحم ولا أريد له ثمنًا.

فترددوا فى السير قليلا ثم وقفوا ينظر بعضهم إلى بعض لحظة، ثم انقلب تيارهم عائدًا، وأسرعوا حتى بلغوا مصرع الثور وهم يركضون. وجعل كل منهم يحمل ما يستطيع حمله حتى تخطفوا اللحم فلم يبق منه إلا فخذ واحدة كان الحاج واقفًا إلى جوارها يمنعها. ونظر الحاج إلى فى غضب قائلا:

– أهكذا لا تبيع شـيئًا؟ أهكذا تضيع علـى الدراهم ويذهب كل جهدى سدى؟ ثم أخذ الفخذ فحملها على كتفه اليسرى، وجر جلد الثور بيمناه ووضع سـكينًا تحت إبطه والأخرى فى فمه، ثم مضى خارجًا.

فسار أبو النور وراءه ونزع جلد الثور منه وقال فى حنق:

– جحا أولى بجلد ثوره.

فنظر الحاج إليه فى غيظ، ثم ترك الجلد وأخذ السكين من فمه، ومضى يهز بها يمينه.

فصحت به متوسلا فى غيظ:

– دع السكين فإنها لامرأتى.

فرماهـا إلى الأرض، ومضى بغير أن يلتفت نحوى، حتى خرج وهو يدمدم ويبرطم.

ونظر أبو النور إلى وهو يرفع جلد الثور وقال بصوت مختنق:

– صديقى...

فنظرت إليه وقلت فى حزن:

– أبا النور...

وسـرت وهو إلى جانبى يجر الجلد، حتـى بلغنا مربط الثور، فوجدنا به فوضى تشبه آثار موقعة فى حرب ضروس. وجدنا رأس الثـور المسـكين والأكارع والفرث والمصران وكومة من الأوسـاخ، جعلـت الهواء عفنًا يكاد يخنـق الأنفاس. فرمى صديقى الجلد إلى

ناحية، وأخـذ يرفع الحطام ويكنس الأقذار. وأسـرعت أسـاعده حتى مضت سـاعة، وكلت منا الأيـدى، وتألمت فقرات الظهر من الانحناء. فرفعت رأسـى لأسـتريح، ورفع صديقى رأسـه كذلك، وتقابلـت نظراتنـا، ووقفنا حينًـا ينظر كل منا فـى وجه صاحبه صامتًـا. ثم انفجرت بيننا ضحكة فى وقت واحد، فى لحظة واحدة كأنها ضحكة شخص واحد. وامتدت الضحكة وطالت حتى كدنا نقع على الأرض من الإعياء، وجعل كل منا يضرب بيده على ركبته.

لقد كانت فكاهة عظمى.

■■■

obeikandl.com

٧

ما أشد ضيقى بالحياة فى ماهوش وطنى! فإنى لم أجد حولى فيه إلا جشعًا وظلمًا. ولكنى أرحم هؤلاء الذين يظلموننى فإنهم جديرون بالرثـاء. وأى قيمة للحياة إذا هى خلت من الكرم والإيثار والمحبة والصدق؟ إن الذين يفقدون هذه الخلال لا تبقى لهم فى الحياة فضلة تستحق الحياة. ولكنى مع هذا قد كدت أضيق بالحياة فى ماهوش.

وحاولـت أن أعتزل الناس قانعًا بالصورة التى أسـمو معها إلى السماء فى خيالى، فكنت كل يوم أخرج إلى الحقول حتى أصل إلى شـجرة الجميز، فأصعد فوقها وأختبئ بين فروعها حتى لا يرانى الناس وأنجو من فضولهم. فكنت أقضى هناك الأيام أو الليالى خاليًا إلى نفسى، أطلع على الناس بغير أن يرونى، وأخلو هناك إلى طيف عليـة ابنة علاء الدين فأناجيه وأحدثـه بالمعانى التى لا أجد فى الأحياء من يفهمها. ولكنى بعد حين ضقت بمجلسـى فوق الشجرة لأنـه ملأ صدرى بعيوب غيـرى. إذ كنت أرى الناس يمرون تحتى وهم لا يفطنون إلى وجـودى، فيظهرون ما يبالغون فى إخفائه عن العيون ولا يتحرجون من كشـف خلجات الضمائر. وقد خرجت من كل ما رأيته وأنا فوق الشـجرة على حقيقة واحدة، هى أن الإنسان جدير بالرثاء، وليس فى ذنوب الناس ما يستحق العقاب.

لقد بدا لى وأنا فوق الشجرة أن الله خالق هذه الأكوان العظيمة لن يضيــق بالعفو ولن يكبر على رحمته ذنب، فلما لم يجدنى اعتزالى فوق الشــجرة، حاولت الاعتزال فى الفلوات فكنت أخرج إلى تلال ماهوش وأشــرف منها على واديها، فــأراه خطًّا أغبر ضئيلا تحت قدمــى، ويخيل إلى أن الأنفاس تضيــق فيه من الضباب الذى يجثم عليه. فإذا وقفــت حينًا أنظر إلى ماهوش من فوق التلال لاحت لى صغيرة تافهة، بكل ما فيها من نضال وضجيج. ولكنى مع ذلك كنت أعود إليها وأحس أننى لا أســتطيع الاستغناء عنها. فإذا حاولت أن أجد لى موضعًا فيها لم أعد إلا بالخيبة، فأرتد إلى عزلتى وتأملى. ولــو كنت فى غنى عن الطعام والملبــس،أو لو كان أهلى وولدى فى غنى عمــا يحتاج إليه أمثالهم، لما برح بــى الضيق من حياتى فى ماهوش وطنى، ولكنى بشــر كســائر الناس وأهلــى وولدى لا غنى لهــم عن أن يصيبوا من الحياة نصيبًا. فكيف أجد ذلك النصيب وقد بحثت عنه فى كل أركان ماهوش فلم أجد لى فيها مكانًا.

ولقد أبى لى حيائى أن أشــكو إلى الناس، فلست أحب أن أحمل أحــدًا ثقل همى. ولولا كلمة أقولهــا لصديقى أبى النور لأنفس بها عــن صدرى لزاد الأمر على طاقتى. وقد أشــار ذلك الصديق علىّ أن أذهب إلى القاضى وهو صديق كان لأبى، لعلى إذا شكوت إليه حالى ساعدنى على أن أجد عملا ألتمس منه القوت لنفسى وأهلى. فترددت طويلا ولكن الحاجة كانت تدفعنى. وغرتنى من القاضى كلمات كان

يقولها لى إذا لقينى، فذهبت إليه على استحياء وسألته مساعدتى. ولكنــه نظر إلى نظرة فيها دهش وعجب، ولم يجبنى بحرف على مقالى. وتشــاغل عنى ببعض أمره حينًــا، ثم التفت إلى وقال: «إن الأرزاق موفورة لمن أقبل على التماسها» ثم أضاف سائلا:

– لم لا تشتغل بالتجارة يا جحا؟

ولو كان عندى مال لما انتظرت حتى يقترح على الســيد القاضى. فإنــى لا أملك مــن الدنيا ما أعيش به يومًا بعــد يوم. ولو كان عندى رأس المال لما احتجت إلى أن أكون تاجرًا. فسكت حينًا وأنا مطرق، فأعاد القاضى سؤاله كأنه يريد ألا أنصرف عنه حتى يفتح لى متجرًا.

يا للنفاق والرياء! لقد كان فى يده أن يجعلنى محتسبًا أو مأذونًا، ولو كان جادًّا فى عنايته بأمرى لما رد على ســؤالى بســؤال، ولما حملنــى مؤونة الاعتذار. فلمــا لم أجد عند القاضــى جوابًا لم أجد حاجة إلى أن أجيب عن سؤاله. وانطلقت منى آهة ثم أعقبتها كلمة «يا الله»، ثم مضيت عنه.

فقام مسرعًا يشتد فى أثرى، حتى أدركنى ودس فى يدى أربعين درهمًا وقال لى:

– أحب أن تبدأ تجارتك، فاشــتر لى بهذه عشرين وزة لطعام ضيوفــى. ولم أكن عنــد ذلك فارغ البــال، فأناقشــه أو أجادله، فوضعت الدراهم فى جيبى ثــم مضيت عنه صامتًا. وجعلت أعيد سؤاله على نفسى:

– لم لا تشتغل بالتجارة يا جحا؟

ولقد كانت التجارة مهنة الكرام، وكان من أجدادى من اشتغلوا بالتجـارة. وكان النبى عليه الصلاة والسـلام تاجرًا، وكان أبو بكر وعثمان تاجرين فلم لا أكون مثلهم تاجرًا.

ولكن التجارة تحتاج إلى المال، ولست أدرى أيقيض الله لى كنزًا أم يجعل لى فى طريقى لقى من ذهب أو جوهر؟ والتجارة فوق هذا تحتاج إلى ولوج الأسـواق ومعاملة السـوقة، فهل أستطيع أن أكون تاجرًا؟

ولكنى عدت إلى نفسى قائلا:

– مالـى أضعف عن الحياة، وإذا عدت منها بالخيبة التمسـت الأعذار لنفسى؟

وعزمـت على أن أخوض زحمة الناس وأن أضرب فى الحياة كما يضربون. فما عدت إلى منزلى حتى كنت قد استقر عزمى. ونظرت حولـى وجعلت أقلب وجوه الرأى وألتمس الحيلة فى تحصيل رأس المال، حتى عزمت على بيع دارى ليكون ثمنها رأس مالى.

وهكذا بعت البيت القديم الذى خلفه لى الأجداد، والذى يحمل فـى كل ركن من أركانه ألوفًا من الذكريـات. وكان بيع ذلك البيت صدمة كادت نفسـى تتصدع منها. فوقفت عند كل جذع فى الحديقة الجـرداء، ووقفت عند السـاقية المتهدمة التـى لا تخرج الماء، وذكرت ثورى المسـكين الذى ودّره جارى جمال الدين سامحه الله.

وسرت حوله أذرف الدموع الغزار أسفًا وحزنًا، فوقفت عند كل لبنة من لبنات السور المتهدم الذى لا يبلغ علوه ذراعًا، وجعلت أناجى حيطانه، وأندب لها اضطرارى لفراقها، ولم يفارقنى الشعور بأننى أنا الذى جعل الدهر من محنته أن يبيع هذا التراث العزيز.

ثم جمعت كل متاعى وانتقلت إلى دار أخرى فى زقاق ضيق ونزلت إلى ميدان العمل كما ينزل الناس فى التماس الأرزاق.

وكانت كلمات القاضى ترن فى أذنى كل صباح، إذ قال لى يوم لقيته «إن الأرزاق موفورة لمن أقبل على التماسها».

وذهبت إلى السوق لأنظر فى السلع وأختار من بينها ما يصلح لأن أتخذه متجرًا. وبعد تفكير وتردد اخترت أن أتجر فى الطنافس، فهى نظيفة لا يأنف الحس منها، وهى جميلة يرتاح الذوق إليها، ولا يتعفف عنها أصحاب المروءة، ولا يشتريها إلا العظماء.

ولما استقر رأيى على هذه النية ذهبت إلى متجر عظيم لأشترى منها، فرأيت به مجموعة من تلك التحف الثمينة التى لا تصنع إلا فى مدينة تبريز. فراعنى جمالها وعللت نفسى بالكسب الهين والثروة الطائلة. ووقفت أتأملها وكانت عينى لم تقع على مثلها فى البهاء. كانت نقوشها كأنها خلست من زهر ربيع وكانت ألوانها كأنها استمدت من أشعة الأصيل على أردان السحاب.

فوقفت حيالها مأذوذًا لا أقدر أن أرد عينى عنها، وأجلت ناظرى فى محاسنها فتأملت فيها زهرة بعد زهرة، وقوسًا بعد

قـوس. وضرب بـى الخيال إلى بـلاد إيران وخيل إلـى أننى أرى أنامـل الفتيات وهن يعقـدن عقدها، وكلما أتممـن منها ورقة من زهرة، أو قضيبًا من غصن، امتلأت قلوبهن إعجابًا وزهوًا، وفاضت نفوسـهن تيهًا وعجبًا. وتصورتهن يقفـن دون الأنوال يتأملنها عن بعد ويملن رؤوسـهن يمنة ويسرة، لكى يتملين بحسنها. تصورت هاتيـك الفتيات وهن عاكفات على الطنافس يعقدن فيها العقدة بعد الأخرى، يتهاتفن بالضحكات ويتشـاورن بالهمسات ويتحدثن عن أحلامهن بنفوس جائشـات. ثم تصورت إحداهـن وقد بدا لها من وراء النافذة شخص، فتركت العقدة وأسرعت إلى النافذة، تنظر من وراء «الشـباك»، فتدس عينها فى فرجاته الضيقة بين مخروطاتها الدقيقة لكـى تتزود من حبيبها بنظرة تظـل لقلبها فى الليل زادًا حتى يطلع الصباح. فإذا ما مر الشـخص عادت الفتاة إلى الطنفسـة تعقد فيها العقدة بعد الأخرى، بأنامل مضطربة، ولكن تلك الأنامل كانت تصور الزهرة السـاحرة التى كنت أراهـا أمام عينى، رائعة الألوان حلوة المنظر منسجمة الأشكال. كنت أتصور هذا وأنا واقف أنظر إلى الطنافس، وقلت لنفسى ما هذه إلا خطرات نفوس وأشجان قلوب، وما يغلو على مثلها ثمن وإن غلا.

وذهبـت إلى التاجر لأسـاومه فى شـرائها، فوجدتـه حريصًا عليهـا، ولا عجب فهـى جديرة أن يحرص عليهـا كل من يعرف لها قدرهـا. فزدته فى ثمنها ولم أتردد فـى أن أبذل له ما يطمعه

فى بيعها. وبعد لأى سمح التاجر فدفعها إلى، ووزنت له ثمنها ثلثمائة دينار كاملة. وحملتها وسرت بها وأنا أكاد أطير فرحًا، فقد خيل إلى أننى فزت من الرجل بصفقة الخبير ذى القلب البصير.

ولكن ماذا وجدت من الناس؟ ذهبت أعرض الطنافس على خيار القوم، فعرضتها على القاضى فلم يكن فى حاجة إليها، وعلى المحتسب فقال إنه اشترى بالأمس منها، وهكذا لم أجد فى كل من عرضتها عليهم رجلا يستطيع أن يدرك أسرار جمالها. ثم عرضتها على الناس فى الأسواق فكانوا يقومون إليها يقيسونها بالذراع، ويحسبونها بالأيدى ويزنونها بالميزان، كأنما هى سلعة مبتذلة، وليست من حرارة الأرواح ونشوة الأمانى. وكانوا مع ذلك إذا اشتروها لم يعرضوا إلا البخس من الأثمان. وهكذا خرجت من تجارة الطنافس بخسارة نصف مالى. ولكنى لم أجزع ولم أضعف، وعزمت على أن أختار تجارة أخرى تكون فى سلعة مما يحتاج الناس إليه ولا يمكنهم أن يستغنوا عنه، فإن العظماء قليلون، وقد فسد الزمان وضاعت بين الناس قيم الفنون. وأما عامة الناس فلا يحصيهم العد والبيع والشراء فيهم لا يحده حد.

وبعد تفكير واجتهاد عزمت على أن أتجر فى الأغنام. فليس فيها قطعة واحدة لا يحتاج الناس إليها. فشعرها صوف وجلدها نعال ولحمها طعام وفروتها حلية، وهى بعد ذلك كله جميلة المنظر حلوة الطباع. ولقد كنت دائمًا أحبها وأطعم ما أقتنيه منها بيدى،

وأداعبـــه كما أداعب ولدى. ولقـــد أبدع الله خلقتها فما ترى فيها من عيب، ســـبحان من جلت قدرته وعظمت حكمتـــه وبدعت صنعته. ولكن كل هذا لم يجعل تجارة الأغنام رابحة. فقد كنت أشتريها وأنا راض بثمنها. كنت أعطى الدنانير المعدنية ثمنًا لخلقة حية. كنت أعطى صاحب الشاة حجرًا أصم، وآخذ منه حياة بديعة الخلق. ولكن الناس إذا أتوا لشرائها منى لم ينظروا إليها بعينى. فكانوا يدفعونها فى غلظة ويجســـونها فى شـــراهة. كان لعابهم يسيل وهم يقبلونها بأيديهم كأنهم ســـباع تتأمل الفريسة. فإذا اشتروها لم يشتروها إلا بعد مماكسة ومراجعة ومساومة فيها لجاجة وجشع.

وهكذا لم أخرج من تجارة الأغنام إلا بخســـارة نصف ما بقى من مالى.

هكذا اســـتمر بى الحال وأنا أتنقل مـــن تجارة إلى تجارة، ومن سلعة إلى سلعة، وكل منها يقتطع نصف ما بقى عندى، حتى لم يبق لى إلا دراهم معدودة، فلم أجد شيئًا أشتريه إلا بيض الدجاج.

وفى الحق أن البيض ســـلعة نظيفة جميلـــة الصورة بيضاء اللون لها هندســـة عجيبة فى شكلها، ورونق رائع فى جملتها. ليس فى الأشياء ما يدخل الفرح على القلب مثل البيضة إذا وجدتها فى ركن بيت الدجاج، كأنها عند ذلك كنز من الجوهر.

ولكن البيض لم يكن خيرًا من كل ما ســـبقه. فقد كنت أشـــترى التســـع منها بدرهم – بدرهم واحـــد. وكانت كل بيضة منها عندى

أثمن من كل ما عندى من الدراهم، ولكن الناس كانوا إذا أتوا للشراء، لم يدركوا ما فى البيض من جلال الخلقة وجمال الصورة وإبداع الهندسة، بل ينظرون إليه فى الضوء وينقدونه نقد الصيرفى للدينار، كأنه شىء لا تتجلى فيه قدرة الخالق المبدع الذى برأ الأكوان. فكان الأمر ينتهى بى دائمًا إلى أن أبيع العشرة منه بالدرهم الواحد، حتى ابتلع السوق كل ما بقى من دراهمى.

وأنا اليوم أتلفت حولى فلا أجد إلا يدًا فارغة، بيتًا خاويًا، ولا أزال أنتظر الفرج ولا يزال عنى متباعدًا.

أى رب، هذا أنا ضربت فى الأسواق ولم أعص مشورة القاضى. لم أقعد ولم أتخاذل. ولكنى هذا عبدك لا أملك مالا ولا أجد رزقًا كأنما كنت فى غيبة عند توزيع الأقسام. أستغفرك يا من وسع عفوك الآثام.

لقد كاد الشك يداخلنى، فلأعد إلى صورة الحبيبة التى أسمو معها إلى السماء لعلى أكفر هناك عن خطئى فى التسبيح العلوى والترتيل.

■■■

٨

مـاذا أصنع لكى أعيش فى ماهوش؟ لقد زعم القاضى حرسـه الله أن الأرزاق موفورة لمن أقبل على التماسـها. ولكنى سعيت وسعيت وسعيت ولم أجد لى نصيبًا.

ذهبت اليوم مرة أخرى إلى الشـيخ عمـاد الدين الفقيه لأحاول أن أذكـره بدينى عليه. ولكنى علمت أنه عنـد القاضى. فقلت هذه فرصـة، وذهبت إليه فـى حضرة القاضى أعـزه الله، فوجدته على عهده لا يـزال يهز لحيته، والناس يقبلون يده التماسًـا للبركة، فدخلت وسلمت وخطر لى أن أذهب إليه وأقبل يده مع الناس، لعله يذكر دينى عليه. ولكنى مـا كدت أقف أمامه وأراه يصرف وجهه عنى حتى وجدت نفسى أقول له:

- ألا تعرفنى يا سيدى الشيخ؟

فنظر إلى وجعل يحرك شـفتيه كأنه مشغول بالقراءة. ثم حرك لحيته حركة لم أفهم معناها. ولكن القاضى نادانى وجعل يحدثنى ويسـألنى عن أحوالى. وسألنى كذلك عن الوزات التى طلب منى أن أبتاعها له منذ أشـهر، فذكرت عند ذلـك أننى مدين له بثمن تلك الوزات، وعلانى خجل شـديد. وهكذا ذهبت أطلب دينى فوجدت نفسى مدينًا مطالبًا.

وملت على القاضى فأسررت إليه أننى قد جئت أطلب دينًا لى على صاحبه الفقيه. فهمس فى أذنى:

- ما ينبغى لك أن تطالبه فى دارى.

فخرجت مرتبكًا بعد أن سلمت، ولمحت الشيخ الفقيه يشيعنى بلمعة شماتة من عينيه وهزة سخرية من لحيته.

وسرت أفكر ماذا عساى أن أصنع فى ماهوش لكى أجد فيها رزقى. لكأنى بذلك الرزق كامن فى قلب صخرة من دونها بحر من دونه صحراء قاطعة. أو كأنه فى كهف مغلق عليه باب من حديد ليس فيه إلا ثقب إبرة أحاول أن أنظر إليه من خلالها. على حين أرى ماهوش سخية ليس بها بخل غنية ليس بها فقر مسرفة ليس فيها اقتصاد.

هنا فى ماهوش راقصة ليس عليها إلا أن تحرك خصرها فتنهال عليها الدنانير من كل صوب، وهناك مغنية لو طلبت على أغانيها نصف ثروة ماهوش لسخا أهلها بالنصف الآخر طربًا. ألا أستطيع أن أجد لنفسى سلعة نافقة فى ماهوش؟ لو كان خصرى نحيلا لينًا لاستطعت الرقص، ولو كان غنائى مطربًا لعرضت على قومى الغناء. ولكن ما حيلتى إذا كان خصرى غليظًا جامدًا، وكان صوتى لا يطرب أحدًا. لقد دخلت الحمام يومًا فخطر لى أن أجرب صوتى فى أغنية لعلى أجيدها فأنال منها خيرًا. وأنا أعرف أن أهل ماهوش يحبون الغناء ويطربون له، فهم يتغنون فى كل وقت وكل مكان. هم إذا

حزنــوا غنوا وإذا فرحــوا غنوا وإذا باعوا أو اشــتروا غنوا. كل من أراد أن يعرض ســلعة جعل عرضهــا غناء، وكل من أراد نداء جعل نداءه غناء. وســمعت صوتى فى الحمام فوجدته مطربًا، فدب الأمل فى قلبى وقلت هذه ســلعة نافقة. وخرجت إلى الطريق وأنا أغنى، فاجتمع علــى الناس وجعلوا يضحكون منــى. فدعوتهم أن يعودوا معــى إلى الحمام لعــل صوتى فيه يطربهم، ولكنهــم زادوا ضحكًا ولــم أصب منهم درهمًا. فما حيلتى إذا كان أهل ماهوش لا يرضيهم شىء منى؟

ولما بلغت الدار جلســت مهمومًا حتى جاء صاحبى أبو النور، وما كاد يسلم على حتى سألنى:

– أين كنت اليوم يا صديقى؟

فقصصــت عليه مــا كان منى. يا له من صديــق نبيل! لقد رأيته يمســح دمعة فى عينه، ولا أدرى أكان ذلك إشــفاقًا على أم كان كما قال لوجع فى عينه. ولما فرغت من قصتى قال لى:

– إن عندى سربًا من الوز لا أجد حاجة إليه، فخذ منه عشرين وزة فاحملها إلى القاضى.

فقلت له:

ولكنك تستطيع بيعها.

فقال فى شىء من العتب.

– لســت أبيــع وزى فى الأســواق يا صديقى. وهــى تكلفنى فى إطعامها ما لا طاقة لى به. فإذا أخذت منها ما تريد أحسنت إلى.

وهكـذا صرت عنده متفضلا بأن آخذ مـن وزاته ما أرد به دينى إلى القاضى. ولم يرض أن يتركنى حتى أخذت عشرين وزة سمينة، نسوقها إلى بيت القاضى.

وسـرت فى الطريق أفكر فى تلك الحكـم التى نطق بها القاضى إذ قال لى إن الرزق مكفول لمن التمسـه. وأردت أن أداعبه مداعبة خفيفة تطلعه على شـىء مما دار فى قلبى. فلما بلغت داره أخذت وزة سـمينة وجعلتها وراء الباب، وسقت تسع عشرة وزة إلى فناء الدار. وكان القاضى هناك فى مجلسـه بعد أن فرغ من صلاة العصر. فلما رآنى مقبلا قام يستقبلنى قائلاً:

– ما أعظمه من وز سـمين! إنك لتحسـن الشـراء يا جحا، ولن أشترى الوز بعد هذا إلا من عندك.

ثـم أقبل على الـوز يعده واحدة بعد واحدة، فلما وجدها تسـع عشرة قال ممتعضًا:

– ولكنها تنقص واحدة. وما كنت لأقبل إلا عشرين كاملة. هكذا كان شـرائى وهكذا كان شـرطى. لسـت أحب أن تنقصنى وزة وقد أخذت ثمنها.

فغاظنى قوله غيظًا شديدًا فإنه لم يعطنى إلا أربعين درهمًا والوزة من هذه السمان لا تساوى أقل من أربعة دراهم. ولكنى كظمت غيظى وقلت له:

أما تعرف العدد يا سيدى القاضى؟

فعدها مرة ثانية ثم ثالثة وقال فى حنق:

– قلت لك إنها تسع عشرة.

فقلت له فى عناد:

– بل هى عشرون. تكفى عشرين من رجالك.

فقال لى: أما تعدها؟

فقلت: إن الوز يتحرك ويدخل بعضه فى بعض فكيف أعده؟

فغضب من مراجعتى ودعا أعوانه فوقفوا حوله حلقة غاضبة. وكأن كلا منهم ينتظر أمره أن يبطحنى على الأرض ليجلدنى جزاء مراجعتى.

فقال لى القاضى:

– عد عشرين من هؤلاء يا جحا.

فعددت عشرين وقفوا صفًّ واحدًا ينتظرون أمر القاضى.

فصاح بهم السيد:

– ليذهب كل منكم ليأخذ فى يده وزة.

فحملوا على الوز فأخذ كل منهم واحدة تحت إبطه إلا واحدًا منهم وقف فارغ اليد ينظر نحوى حانقًا.

فقال القاضى وعلى وجهه بسمة الفوز:

– ألا ترى أنها تسع عشرة وزة؟ ألا ترى هذا الرجل الذى لم يجد نصيبًا؟

فتذكـرت مـا قاله لى من قبـل إذ قـال إن الأرزاق موفورة لكل من أقبل على التماسـها، فضحكت ضحكـة عالية حتى رأيت وجه القاضى يحمر خجلا. وقال ممتعضًا: ماذا يضحكك من قولى؟

فقلت:

– إن الذنـب ذنـب هذا الذى لم يجد لنفسـه نصيبًا، فقد كانت الوزات أمامه إذا أقبل على التماسها.

فضحك القاضى ضحكًا شديدًا ولست أدرى إذا كان قد فهم مقصدى، ولكنه دعانى فوضع ذراعه فى ذراعى وذهب بى إلى مجلسه وقضينا معًا ساعة يسألنى عن أحوالى، وأقص عليه ما كان منى منذ سمعت نصيحته، فبعت دارى واشتغلت تاجرًا حتى أكلت ثمنه تجارتى. وكان يضحـك من حديثى كأننى كنت ألقى عليه فكاهة مع أن قلبى كان يدمى.

ولما سلمت عليه لأنصرف قال لى:

– لا بأس عليك يا جحا، فإنك على كل حال تحسن تجارة الوز، فهات لى عشرين وزة أخرى، ثم أخرج لى أربعين درهمًا.

فنظرت إليـه وهو يمد يده نحوى ثم غلبنـى الضحك فضحكت وضحكـت حتى كـدت أقع متهالـكًا، وتركتـه مادًّا يـده نحوى وانصرفت عنه ضاحكًا.

فلما بلغت باب داره أخـذت الوزة التى تركتها هناك فحملتها إلى بيتى تحت إبطى فأبنائى أولى بها من ذلك القاضى.

٩

مضت أيام لم أر فيها صديقى أبا النور، وضاق صدرى من الوحشة إليــه، فإنه لم يبق فى الحياة من ســلوى إلا أن أجلس معه وأفضى إليه بأحزان قلبى.

وقــد زادنى فى هذه الأيام حزنًا ما لقيته من حمق ريمة وســوء عشــرتها. فهى لا تجعل يومًــا يمر بى بغير أن تزيدنى وسواسًــا وهمًّــا، حتى تخيل إلى أن الفضاء أضيــق فى وجهى من حجرة فى بيتى. أف لحجرات بيتى! إن ســقفها يكاد ينطبق على الأرض فلا أستطيع البقاء فيها وأخرج منها لا ألوى على شىء، وألتمس الهواء الطلق فى أطراف ماهوش، فتطاردنى أشباح البؤس تصيح من ورائى بصوت ريمة زوجتى.

فكنت كلما وجدت جنازة سرت وراء النعش لأشيعها إلى القبور، وأبقى حتــى يدفن الميت وتقرأ عند جدثــه الصلوات، ويوجه إلى أهله العزاء، فأود لو طال بقائى عند القبر فإنى أجد عنده ارتياحًا. وقد ســار ولدى عجيب معى يومًا مع إحدى هذه الجنائز، فلما دفن الميت قام بعض أصحابه يؤبنونه فقال أحدهم فى رثائه:

«أنت هذا نحملك إلى مقرك الموحش، الذى لا ترى فيه شمسًــا ولا قمرًا، ولا يطالعك فيه نجم ولا يهب عليك نســيم. أنت هذا فى مقرك المظلم لا تنفذ إليك الأضواء ولا تؤنسك سجعات الأطيار».

وجعل ذلك الرجل يفيض فى وصف القبر ووحشته، وظلمته وضيقه، حتى انهلت العبرات من المعزين وشهقوا جميعًا بالبكاء. وعند ذلك شعرت بوخزة فى جنبى، فإذا ولدى يلكزنى بكوعه ويشير إلى أن أدنو منه بأذنى. وقال لى هامسًا:

- أقرأت قصيدتى التى وصفت بها بيتنا الجديد؟

وكان قد أطلعنى على قصيدة يصف فيها ذلك البيت، فكأنه قد أملاها على ذلك الرجل الذى وقف يؤبن الميت ويصف قبره ووحشته وظلمته.

فثارت نفسى عند ذلك، وتذكرت كل بؤسى، وقمت بغير أن أستأذن أو أعزى، وهمت على وجهى بين القبور وولدى يسير صامتًا فى أثرى، حتى بلغت المدينة ولم ألتفت ورائى.

وكنت فى سيرى هائمًا فى أحزانى، أشعر بالخزى مما جررته على أهلى وولدى من الشقاء. إن ماهوش قد أنكرتنى ولم تجعل لى فى أرزاقها نصيبًا ولا بين أهلها مكانًا، واضطرتنى إلى بيع دار أجدادى، ولم تجعل لى فى بيوتها إلا ذلك القبر الذى نقيم فيه أحياء. ولكن أينا المذنب أأنا أم ماهوش؟ أى وطنى العزيز أينا الذى يقع عليه ذنب حرمانى وطردى وإقتار رزقى أأنا أم أنت؟ أتتركنى ماهوش أهلك أنا وأهلى؟ أيقال عن ماهوش فى مستقبل أيامها إن جحا وأهله ماتوا بها جوعًا ودفنوا بها أحياء؟ ولما قربت من دارى رأيت عن بعد صديقى أبا النور يطرق الباب وهو يحمل شيئًا

على ظهره وشـيئًا فى يده. ثم فتح له الباب فدخل. وأسرعت حتى بلغت الدار فوجدته قد وضع حمله، وكان كيلة من القمح وقطعة من اللحم، وأخرج من جيبه رمانتين وجلس يمسح العرق عن جبينه.

فلما رأيت ذلك كبر على نفسـى. أيحمـل أبو النور كل هذا إلى وهو رجل رقيق الحال لا يكاد يستطيع أن يعيش مستورًا؟ وتجرأت فكلمتـه فى هذا، وما كدت أخرج صوتـى حتى خرجت على ريمة كأنها نمرة تنطلق من عرينها. وقالت بصوتها الجهورى:

– أكنـت تريد أن نموت جوعًا؟ ألا فاعلـم أيها الرجل أنه لولا هداياه فى هذين الأسبوعين لهلكنا كلنا جوعًا.

ولم أدرك إلا عند ذلك حقيقة قولها. لقد مضى على أسبوعان حقًّا لم أجد فى جيبى درهمًا ولم أعط امرأتى دانقًا. فكيف كنا نأكل ومم كنا ننفق؟

ولا أسـتطيع أن أبين مقـدار ألمى عندما تبينت هـذه الحقيقة الطاحنة. لقد انحدرت وهويت وصرت حملا على صديقى.

وخرجت من الدار أسـير كالأعمى والثـورة تملأ جوانحى. لئن كانت ماهوش لا تفسـح لى مكانًا فيها فإنى لن أحمل صديقى وحده مؤونتى. إن لى حقًّا علـى ماهوش فأنا جحاها. أنا الذى إذا ذكرت ماهوش قـال عنها الناس إنها وطنى. أنا الـذى يبعث الملوك إلى لكى أسـير إليهم فآبى. أنا الذى يطلبونه لكى يسامرهم ويعلمهم – كما يقولون – الحكمة فيأبى إلا أن يعيش بين قومه الذين ينكرونه.

أنا الذى أتنفس فى حماقات ماهوش بضحكى وأهدهد من سخافاتها بعفوى وأستقبل السماء فى الصباح والمساء من أجلها بدعائى. فلآخذن من ماهوش حقى وإن أبت أن تبذل فى حقى.

ولما صرت بين الحقول تلفت حولى فلم أجد سوى بساتين فسيحة تمتد إلى مدى البصر عن يمينى وشمالى، فيها من كل فاكهة ومن كل بقلة. فعزمت على السرقة عمدًا. فليقل الناس ما يقولون فلست أسميها سرقة. فأنا لا آخذ إلا رزقى. أنا جحا، وما ينبغى لها أن تنسانى. وقفزت فوق السور وجعلت أقطف وأقطع وأخلع فى شىء من الحنق. ولست أنكر أننى مع كل حنقى لم أخل من خوف أن يرانى الناس فيقولوا إننى أسرق. ونزعت شملة كانت على فجعلت فيها الفاكهة والبقل وجعلتها صرة كبيرة. ولما عزمت على حملها شعرت بوخزة فى قلبى، ألست سارقًا؟ ألم أدخل البستان خفية أتلفت لا يرانى صاحبه؟ وفيما كنت أفكر مضطربًا مرتبكًا شعرت بيد على كتفى وسمعت صاحب البستان يقول:

– ما هذا يا جحا؟

ففزعت ولكنى تماسكت وفكرت مليا وقلت فى نفسى إنها عاصفة هوجاء. ألم تكن ثورة نفسى كالعاصفة؟

وأجبت الرجل بغير وعى: هى عاصفة هوجاء حملتنى فوق السور قسرًا. فتضاحك الرجل خبثًا كأننى كنت أمازحه ثم قال:

– وأين تلك العاصفة؟ فالجو صاف والشمس تبسم فى وداعة.

فقلت فى مرارة: إنك لا تعرفها. إنها عاصفة لا يحسها أمثالك.

فضحك الرجل وكأنه ظن بى تخليطًا ثم قال:

– آمنا يا سيدى جحا. هى العاصفة قد حملتك، ولكن ما الذى قلع هذا وقطع هذا وقطف ذاك؟ وجعل يشير إلى ما فى صرتى.

فقلت مبادرًا:

– دفعتنى العاصفة فكلما تشبثت بشىء خرج فى يدى.

فضحك الرجل مرة أخرى. ثم قال:

– آمنا بهذا أيضًا. ولكن ما الذى وضع كل هذا فى شملتك؟

فلم أجد للرجل جوابًا. فقلت فى صراحة:

– أما هذا فقد فاجأتنى قبل أن أفكر فيه.

فانفجر الرجل بالضحك انفجارًا عجيبًا حتى كاد يقع على الأرض، ثم أقبل نحوى فحمل الشملة بيديه وألقاها على كتفى قائلا:

– بارك الله لك فيها يا جحا، وحاذر أن تطيرها العاصفة عن كاهلك.

ثم فتح لى باب البستان فخرجت منه مغتبطًا حزينًا.

ولما عدت إلى بيتى وجدت أبا النور ما زال جالسًا فى انتظارى، فحدثته بأمرى. وقد لمحت الدمع ينحدر فوق خديه وهو قائم لينصرف عنى.

أى صديقى، ليس فى طاقة إنسان أن يفعل ما فعلت.

إنك تواسينى بصمتك ودمعك خيرًا مما واسيتنى بقمحك ولحمك.

ولا أملك إلا أن أشكرك من قلب جريح.

١٠

لا تحمل الأنباء إلينا إلا كل منذر بكارثة. وهل عجب أن يرسل الله الكوارث على بلد مثل ماهوش؟

خرج تيمور بجيوشه فاجتاح أقصى ريفها وأدناه، وخرج علاء الدين من خوفه يهرب فى البلاد طريدًا ذليلا. ويلاه! إن علاء الدين طريد بعد أن خرج من عاصمته وقصره. فأين أنت يا علية ابنة علاء الدين؟ لقد أنسانى هم الحياة أن أخلو إلى خيالك وأسمو معه إلى سماوات العلا. فأين أنت فى مصاب ماهوش؟ أبكت عيناك حزنًا؟ أعصر قلبك همًّا؟ وهل امتلأ صدرك فزعًا؟ أنظرت إليك العيون بغير ستر، وتشتت عنك الحراس والحجاب؟ ليتك لم تكونى سوى هذا الخيال الذى فى فؤادى فلا تصل إليك الأيدى ولا تدنو منك حوادث الدهر. لقد جنى عليك أنك فى ماهوش، فكان لك مصير أهل ماهوش.

وكيف أقيم فى هذا البلد الذى لا مكان لى فيه إذا كان خلوًا منك؟ لقد كنت لا أرضى بماهوش بديلا وأنت فى ذرى قصرك. فما مقامى بأرض ماهوش وقد كنت فيها أتنسم النسيم من قبلك؟ لقد أبيت الخروج من ماهوش على ظلمها حتى لا أبعد عن ديار يسطع نورك عليها، وتنبعث أنفاس طهرك فوقها. لقد أبيت أن أجيب دعوة ملوك البلاد إذ دعونى إلى قصورهم، وأصممت أذنى عن نداء العلماء

فى أقاصى الأرض إذ نشدونى أن أعقد حلقات الدرس فى مساجدهم. ولكن أأبقى بعد فى ماهوش وقد نزحت عنها وليس لى مكان فيها؟

لقد دفعنى غيظى بالأمس إلى عمل ما زلت ألوم عليه نفسى. فما كدت أدخل إلى دارى بعد أن فارقنى أبو النور حتى عادت الثورة إلى قلبى. إن ماهوش تذلنى وتقهرنى وتتجاهل وجودى. إن عيونها العشواء لا تعرف لى مكانى. وخطر لى أن أموت لو كان الموت فى يدى. ثم تصورت نفسى ميتًا فى نعش يحملنى الناس إلى القبر ويهيلون على التراب، ثم تصورت قومى بعد أن مت وأخليت مكانى بينهم فى ماهوش. ألا يهزهم فقدى؟ ألا يشعرون بالوحشة من فراقى؟ ألا يحسون الندم على إغفالى وإهمالى فى حياتى؟

واستقر عزمى آخر الأمر على أن أموت. فصلبت أطرافى وقلت «أيها الموت أقبل».

ولم يكن من الهين على أن أظهر الموت وأنا حى أتنفس، ولكن الناس لا يقلبون الميت ولا يجرءون على جس أعضائه وتسمع ضربات قلبه.

فالموت رهيب وللميت حرمة تجعل الناس يهابون الاقتراب منه. فلما جاءت امرأتى إلى حجرتى ورأتنى ممددًا نادتنى ولم يخل نداؤها من سبابى. فلم أجب على صراخها ولم أحرك شعرة من جفنى. فجاءت الحمقاء حتى اقتربت منى ووخزت صدرى. فلما لم أتحرك ووجدتنى متصلبًا صرخت وولولت وخرجت إلى الجيران

تنعانـــى. ثم ما لبثت أن عـــادت وقد رأيتها من بيـــن جفنى تلبس ســـوادًا من قمة رأسها إلى أخمصها. وكانت تصيح قائلة «يا سبعى! يا سيدى وصاحبى!».

ولم يخل قلبى من الشـــماتة فيها لطول مـــا عذبتنى قبل موتى. ولم أســـمح لنفســـى بأن أرق لها وأعود إلى الحيـــاة، فبقيت متمددًا متصلبًا فى ستر ظلام حجرتى.

ثم كان ما كان وغسلت وجهزت ووضعت على الفراش، حتى يأتوا بالنعش وكنت أســـمع ما يدور حولى من الأحاديث، فعرفت كيف استقبلت ماهوش نبأ موتى. ولم يبق فى ماهوش رجل ولا امراة إلا أسف علىّ وحزن لفقدى. وتحركت أريحية الناس فجمعوا من المال وأنا ميت ما لو جمعوه لى من قبل لكفونى مؤونة الحياة، ولما بعت دارى، ولعشت بينهم قرير العين لا أفكر فى موت. وسمعت البكاء والعزاء، حتى امرأتى ريمة كادت تقع على الأرض من لطم خديها. وكنت كلما أتت طائفة جديدة للعزاء كتمت أنفاســـى حتى لا يغيب عنـــى حرف ممـــا يقولون. فخرجت من كل ما ســـمعت على أن أهل ماهوش مجمعون على محبتى وإكرامى. وكانوا يتذاكرون فكاهاتى ويحفظون من أقوالى ما لا أذكر أنه صدر عنى. فكانت تلك الساعات التى قضيتها فى انتظار النعش أسعد أيام حياتى...

ثم جاء صديقى أبو النـــور، وكان غائبًا يعد لى جهازى ويختار موضع قبـــرى. وجاء يحمل أكفانى وحنوطـــى، ولم ينس أن يفرش

لحدى بالرمل والحناء ليكون أرفق بجثمانى. ولما دخل على جلس إلى جانبى، ولم أسمعه يتكلم أو يشهق ببكاء أو يتحدث برياء، ولكنى كنت أعرف أنه حزن لفراقى حزنًا أعمق من الدمع والرثاء. وقد شعرت بيده تجسنى على حين فجأة، كأنه لم يؤمن بموتى. وكانت يده كلما اقتربت من وجهى أحسست رغبة شديدة فى أن أقبلها. ولمت نفسى على أننى خدعته كما خدعت الناس، وأدخلت على قلبه الحزن من أجلى، حتى كدت أهمس له بالحق، لولا أننى خفت من افتضاح أمرى.

ثم حملت بعد أن تم تجهيزى ووضعت فى النعش، وسار المشيعون من أمامى ومن خلفى، بعضهم ينشد الشعر وبعضهم يتلو القرآن، وبعضهم يحدث جاره فى شئون تجارته أو سيرة جيرانه. وكان للمشهد ضجيج عظيم ينبئ بما فيه من عدد عديد. وما زلت محمولا فى طرق ماهوش وأنا أعرف كل موضع حملت فيه، مما كان يصل إلى سمعى من أصوات الأسف يبعثها النساء والصبيان من بيوتهم. فهؤلاء جميعا أهل ماهوش الذين لم أجد وسيلة إلى العيش فيهم حتى اضطررت إلى أن أموت موتًا. وأخيرًا بلغ المشهد إلى جانب النهر – نهر ماهوش – من ناحية الجسر الأعظم فخفق قلبى لذلك النهر الذى طالما خفق لمنظره وأنا حى. وكنت منذ يومين قد رأيته فاض وعلا حتى صارت أمواجه ترتطم بالشاطئ ويسمع عجيجها عن بعد ميل. وكانت العادة أن يخوض الناس فيه حتى

يبلغوا الجانب الآخر حيث جبانة المدينة. ولكن النهر لم يسبق له أن علا وفاض كما فعل منذ يومين.

وأحسست عند ذلك وأنا فى نعشى ترددًا واضطرابًا فى الذين يحملوننى كأنهم خافوا أن يخوضوا فى الماء الثائر. وكان ذلك الجزء من النهر عميقًا، ولو خاضوا فيه لغرقوا وغرقت معهم. ولا أنكر أننى خشيت على نفسى أن يخطئ المشيعون خطأ لا يداوى. وكنت أعرف فى النهر موضعًا آخر لم يبلغ الماء فيه إلا علوًا ضئيلا إذ هناك صخرة كالجسر تعترض مجراه.فتجلدت وتمطيت وشددت نفسى من أربطة الكفن، وقمت برأسى حتى رفعت الغطاء الحريرى الذى فوق النعش. ولما أشرفت على المشيعين صحت فيهم قائلا:

– من هناك من هناك، فالمخاضة عن يساركم.

وكانوا فى شغل ينظرون إلى النهر ويتحاورون كيف يجتازونه. فما كادوا يسمعون صوتى حتى ارتفعت منهم صيحة فزع وتفرقوا يلتمسون السبل كأنهم قطيع من شياه طلع عليهم ذئب كاسر. ورمى الحمالون النعش فى عنف حتى أحسست عظامى تقعقع. فإذا بالمكان يخلو فلم يبق فيه إلا صديقى أبو النور وواحد من القراء كان لا يستطيع جريًا.

فأخذ أبو النور يفك عنى أكفانى بأنامل مضطربة من الفرح وهو يقول:

– لم يصدق قلبى أنك مت حقا.

وبعد قليل سكنت صدمة الخوف عن الناس فعادوا نحوى ولهم ضجيج وعجيج، يقذفوننى بوابل من ألفاظ التقريع والتأنيب. ولا عجب فى ذلك فقد رأوا أننى لم أزل حيًّا، وعبارات المودة لا تساق إلا إلى الأموات.

فقمت بينهم متسترًا بأكفانى، وحاولت أن أعتذر إليهم مما سببت لهم من المتاعب، وبالغت فى ذلك حتى خيل إلىّ أنهم قد عفوا عنى. ثم طلبت منهم أن يعطونى ما جمعوه من المال من أجلى، وما أخذوه من الناس باسمى، حتى لا أضطر أن أموت مرة أخرى. فانهالوا على بالشتائم وسمونى محتالا وضحكة وخائب الرجاء. ثم انصرفوا عنى.

فعدت نحو دارى أتوكأ على صديقى أبى النور وأجر أذيال أكفانى، وأنا أقطع نفسى أسفًا وغمًّا، ولم أجن من وراء كل تدبيرى شيئًا.

وكان أبو النور أشد ألمًا منى. فكانت الدموع تتساقط على ثوبه كأنها سمط متصل، والأنفاس تهز صدره هزًّا عنيفًا بعد أن كان هادئًا صامتًا. وقضى معى تلك الليلة حتى طلع الفجر ولم يفارقنى لحظة. ذلك الصديق العزيز!

أما أنا فقد عزمت على أن أهاجر من ماهوش، فلن أبقى فى بلد لا أجد لى مكانًا فيه. حتى إن الموت نفسه لم يفسح لى بينهم محلا.

١١

خرجت من وطنى ماهوش أسير كالأعمى، والأفكار تحتوشنى من كل جانب والأنفاس تكاد تمزق صدرى. ونظرت حولى فرأيت ربوة ماهوش الخضراء تبسم للصباح، إذ تلقى عليها الشمس أول شعاعها الذهبى. رأيت سماءها والسحب تزخرف أطرافها بنسيج سحرى من الفضة والذهب واللؤلؤ والياقوت. هذه السماء هى التى ملأت قلبى تسبيحًا وعلمتنى من المعانى ما تعجز عنه كتب الفلاسفة ومباحث العلماء. وألقيت نظرى على نهر ماهوش إذ تنحدر إليه الجداول الصافية، تتدفق من عيون رائقة باردة تنبع من قمة الربوة ثم تسير فى جداولها التى تلمع فى مجاريها الحصباء كأنها الدرر انفرطت من عقود الحسان. ورأيت بيوت ماهوش على سفح الربوة، تتخللها البساتين بما فيها من نبت بين قصير وطويل، وبين مورق ومجرد، قد تداخلت ألوانها وتشابكت فروعها وتعانقت أغصانها واهتزت للنسيم الوديع.

هذه ماهوش لذة العين وبهجة القلب وشفاء الصدر، أغادرها وأهاجر منها لأضرب فى الآفاق. فناديت من أعماق قلبى «يا نفس تجلدى ويا عين أغمضى ويا فؤاد التمس النسيان»، ثم سرت فى الطريق أفكر فيما كان من شقائى فى وطنى الحبيب القاسى، الذى لم أجد فيه لى مكانًا.

وفيما كنت فى طريقى مطرقًا مفكرًا أفقت على صدمة عنيفة دفعتنى إلى جانب الطريق، وكادت تقذف بى إلى النهر الصافى، الذى مازال منذ الأبد القديم يجرى غير مبال إقامة الناس فى ماهوش أو خروجهم منها. ولكنى تماسكت وتعلقت بشجرة قريبة، وتلفت حولى لأرى ذلك الذى كاد يحطمنى بصدمته، وامتلأ قلبى غمًّا وتشاءمت برحلتى. فهذا أول الطريق أصطدم فيه وأخبط بمثل هذه الخبطة الشديدة. فرأيت فارسًا من جنود تيمور هؤلاء أصحاب القلانس العالية، الذين يحسنون الانتفاش فى ملابسهم الزاهية. وكان ينظر نحوى كأنه ينتظر منى أن أشكره على صدمته. فاعترانى إحساس لا أستطيع وصفه إلا بأنه مزيج من الخوف والغضب. فإننى رجل لا أحب الحروب ولا من يخوضونها، ولا أطيق أن أرى دجاجة تذبح تحت ناظرى. فكيف بى وقد رأيت أمامى رجلا من جنود تيمور الذين يملأون الأرض دماء؟ كانت نظراتى إلى الفارس تنم عما كان فى نفسى، ووقفت أتأمله وكان منظره فى الحق عجيبًا. كان مثل الببغاء فى زينته الكاملة: فى قلنسوة حمراء فوقها ريشة زرقاء من تحتها عباءة صفراء تغطى ملابس أخرى لا أعرفها بيضاء وخضراء، ولف على وسطه منطقة سوداء، ودلى فى جنبه سيفًا مقوسًا منقوشًا بالذهب والفضة، مرصعًا بالجواهر، ومن تحته وتحت كل زينته جواد كريم لا يقل فى ألوان زخرفه عن صاحبه. فقلت فى نفسى «سبحان الله! ما هذا

كله؟» وجعلت أصعد فيه بصرى وأصوبه من أعلى ريشته إلى حافر جواده،وأحسست أن خوفى وغضبى قد تبدلا وامتلأ قلبى ضحكًا. فتبسم الفارس وأخذ يكلمنى بلغة لم أفهم منها إلا يسيرًا، فهمت منه أنه يريد أن يعرف من أنا. فقلت له أريد أن أصرفه وأتجه فى سبيلى: «أنا فقيه»، ثم هممت بالسير، فهمز جواده يسايرنى، وقال وفى صوته رنة السرور: «فقيه؟».

فهززت رأسى أن نعم ومضيت فى سبيلى. ولكنه كرر سؤاله فى اهتمام. فخشيت أن ينخدع الرجل عن حقيقتى، وهو لا يعرف لغتى. فلعل لهذا اللفظ «فقيه» معنى آخر عنده مثل تاجر أو صيرفى أو جوهرى فيحسب خطأ أننى ممن يطمع فيهم رفاق الطريق، فيبادر بإيقاع الأذى بى، فبادرت قائلا «أديب». واخترت هذه الكلمة لأنها معروفة للناس جميعًا، ولا تحمل لبسًا ولا يختلط على أحد معناها، فكل الناس يعرفون من هو الأديب. هو الرجل الذى لا يملك من حطام الحياة شيئًا. ولكن الفارس لم يعجبه هذا اللفظ، وكرر الكلمة الأولى سائلا «فقيه؟». فملأت عينى منه وتنازعنى الخوف، ولكنى رأيت أنه قد بدأ يعبس. فخفت إن ضحكت أن يغضب، واكتفيت بأن هززت رأسى له بالإيجاب وفوضت أمرى إلى الله. فأسرع الرجل فنزل عن جواده وفتح لى ذراعيه. وأقبل على يضمنى إلى صدره ويقبلنى بين عينى ويرطن بكلام كثير. ففهمت

منـــه إجمالا أنه قائد كتيبة فى جيـــش تيمور، وأنه طالما طمع فى أن يكون عنده فقيه ليكون لكتيبته زينة إســـلامية. فلما عرف أننى فقيه ســـره ذلك، وعزم على أن يأخذنى معه. ثم أمرنى فى رفق أن أسير وراءه، فقلت «سبحان الله! أهذه محنة جديدة؟» ووقفت حائرًا مترددًا. فنظر إلى وصاح بى مكررًا أمره أن أسير وراءه. فلم أجد بدًّا من الســـير، ومضيت فى أثـــره مطرقًا أفكر فى أمرى. ثم قلت أعزى نفســـى «إن الســـير وراء هذا الفارس لن يغير شـــيئًا من حالى، فقد خرجت من ماهوش لأســـير فى الأرض، وســـواء لدى شرق وغرب. وانطلقت أمشى قريبًا من ذيل جواده وأنا أكاد أغمض عينى».

وما زلنا نسير حتى مالت الشمس عن كبد السماء، وأخذ التعب يدب فى أوصالى، فنظرت إلى الفارس لعلى أرى عليه علامة تبشر بأنه يريح جواده، فلم أجد على مظهره ما ينم عن شـــىء من ذلك، لأنه كان يهز رجليه ويغنى مرحًا. ومضى زمن طويل بعد ذلك حتى بلغنـــا قرية، فاجتزنـــا بها. وفيما نحن خارجـــان منها طلع علينا فارس آخر عند منعرج الطريق، فلما رآنا أقبل نحونا يسعى، وكان فى زينته أشـــبه الناس بصاحبى حتى خيل إلى أنه توءمه وقد ولدا معًـــا فوق جواديهما. فلما اقترب الفـــارس منا حيا صاحبه، ووقف حيالـــه يحدثه، ثم التفت نحوى وجعل يفحصنى ببصره حينًا، ثم عاد إلى صاحبه يراطنه باهتمام. ولم أدر ما كان بينهما من الحديث إلا أننى سمعت الفارس يصيح وهو ينظر نحوى: «فقيه؟».

فخفق قلبى خفقة شديدة، ونظرت إليه مندهشًا، ثم أحسست أن الضحك يكاد يغلبنى. فملكت نفسى وقلت باسمًا «نعم فقيه». فنظر إلى صاحبه وجعل يحادثه، ثم سمعت الحديث يحمى والألفاظ تسرع فيما بينهما، ثم رأيت الرجلين يجردان سيفيهما أحدهما حيال الآخر وقفة الحرب والنزال. فدب الأمل إلى قلبى وقلت لعل هذا أول الفرج، فليس للفريسة من أمل إلا إذا تطاحن عليها الوحوش. ووقفت أنظر إليهما متفرجًا؛ وكانا مثل ديكين وقفا ليتناقرا. ولكنى لم ألبث إلا قليلا حتى رأيت المنظر يتحول فجأة تحولا كريهًا، فإن الفارسين لم يقفا وجهًا لوجه إلى نهاية المعركة المرة، بل رأيت صاحبى الأول يتجه نحوى مجردًا سيفه ليقتلنى. نعم ليقتلنى أنا. ونظر قبل أن يتم عمله إلى قرينه وقال له ما معناه «سأقتله حتى لا يكون لى ولا لك». ففهمت من هذا أن ما بينهما من الجدال كان فى شأنى، وعلمت أن صاحبى أراد أن يحسم الخلاف الذى بينه وبين صاحبه بأن يبقر بطنى. وكان لابد لى من الدفاع عن نفسى بما استطعت، فصحت قائلا: «حاسب، ماذا تريد؟».

فتوقف الرجل وجعل يبين لى قصده فى لهجة الاعتذار. فقلت متكلفًا الهدوء: «هذا رأى غير صائب».

فرد على بكلام كثير يحاول به أن يفهمنى أنه لا يريد إلا العدالة، فإنه لا يليق عدلا أن أكون فقيه غريمه بغير حق، لأنه قد سبق إلى وضع يده على. فلم أرد أن أجادله فى ذلك، والعدالة

على أية حال أمر نسبى يختلف الناس فى فهم معناها، فيراها القوى من زاوية والضعيف من زاوية أخرى، ولا سبيل إلى تلاقى نظريتهما. ولم أجد وسيلة تنجينى من هذه العدالة إلا أن أجرد لها لسانى وحيلتى. فقلت وأنا أرتجف:

– هذا كلام حسن. ولكن ألا ترى أيها الشجاع أن تحتفظ بى حيًّا؟ فإنى أقدر على أن أنفعك وتستطيع أن تجد فى خيرًا كثيرًا.

فنظر إلى غير مصدق فقلت له مسرعًا:

– أنا رجل شاعر، أقدر على أن أرفع من شأنك حتى يراك الناس سيد الخلق؛ وأقدر على مدحك بما لا تتصور أنه فيك، فيصدق الناس أنك أفضلهم وأسمحهم وأعلمهم وأعقلهم وأحكمهم وأشجعهم.

ولست أدرى أفهم قولى أم لم يفهمه، ولكنى رأيته قد لان ورق لى فأتبعت قولى:

– إنك رجل باسل بغير شك وتستطيع أن تقاتل خصمك حتى تقتله أو تعجزه. فإذا تم لك ذلك سرت وراءك شرقًا أو غربًا كما تشاء.

ولكن هذا الرأى لم يعجبه، فأطرق مفكرًا وهو يتأفف، ثم رفع رأسه بعد حين وقد تهلل وجهه كأن فكرة موفقة سنحت له، وتقدم نحوى باسمًا ووضع يده على كتفى قائلا: «عفارم!».

ثم لوى عنان فرسه وأسرع إلى صاحبه، وسرت وراءه فى لهفة. فسمعته يقول له: «أتذكر الكلب الأسود الذى أودعته عندى؟» فقال له الفارس باهتمام: «نعم بلا شك وأنا فى حاجة إليه». قال له

صاحبى مبتسما فى خبث «إذا أردته فانزل لى عن هذا الفقيه» وأشار إلى. وصمت قليلا ثم قال: «وإلا فأنى قاتل كلبك عند عودتى» وكانت هذه الكلمات كالصاعقة إذا انقضت على الرجل. فنزل عن جواده مترنحًا، وجثا على ركبتيه، وجعل يتوسل إلى صاحبه بكل كلمة رقيقة أن يبقى على كلبه، وأن يفعل بى ما شاء. ثم مسح دمعة ثارت فى عينه، وسلم لصاحبه بغير قيد ولا شرط ولست أنكر أننى قد رققت للرجل فى حزنه من أجل كلبه، وشيعته بنظرى وهو منصرف عنا وفى قلبى مودة له ورحمة.

ولم يطل بنا الوقوف بعد ذلك، فسار صاحبى المنتصر فى طريقه، وأمرنى أن أسير وراءه وجعل يهز رجليه ويغنى. وسرت وراءه فى شيء يشبه الذهول، أتحرك بلا وعى كالآلة الصماء.

وكان النهار ينصرم وأنا أجرر قدمى وراء الجواد، وتمشى التعب فى مفاصلى وعروقى، واستولى الضيق على نفسى، ولاح لى الفضاء مثل لجة البحر الهائج لا تقع العين فيه إلا على مجهول. ثم أقبل الليل بعد أن كادت نفسى تزهق، فدعوت الله أن يبعث الفرج. ونظرت إلى الفارس فى حقد، وأخذت أتلو بعض آى من القرآن. وما كان أشد فرحى عندما رأيته يقف فجأة كأن شيئًا أمسكه. ونزل عن جواده وجعل يمشى وينظر حوله ليختار مكانًا للمبيت. وكنا قد بلغنا جانب غابة عظيمة لا تبلغ العين آخرها، قد اكتست

أرضها بالعشب الأخضر، وتشابكت فى أعلاها الغصون. فجلست لألقف أنفاسى وأريح أعضائى، ولم يلبث الظلام أن أرخى سدوله. ثم طلع القمر وكان شعاعه يفيض على الغابة جمالا باهرًا. وهدأ حر النهار إلا ما بقى منه كامنًا فى الهواء إذا هب رخاء من الغرب. وأخذ نور القمر يزداد حتى تخلل فرجات الأغصان، وكسا البساط العشبى الذى تحتها، وتراقصت الظلال وتلاعبت كلما هبت نسمة من النسمات. فاسترعى ذلك الجمال بصرى وجلست ساعة أتأمله. وكانت المتعة التى أصبتها كافية لإزالة تعبى واضطرابى، وشعرت بنشوة تملأ صدرى، ورأيت صاحبى الفارس يسير فى أطراف الغابة يجمع الأحطاب. فاسترحت إلى منظره الإنسانى وأنس قلبى إليه وأخذت أنفاسى تعود إلى هدوئها ودب البشر إلى نفسى.

ولما شعرت بما داخل نفسى من الخفة قمت متجهًا إلى الفارس وقلت له مستعيرًا لفظه: «عفارم أيها الشجاع!».

ولم أقصد من قولى شيئًا سوى أن أحدثه. وما كدت أفاتحه بهذه الكلمة حتى استجاب وأقبل على حديثى منطلقًا كأننى فككت بالكلمة عقدة لسانه. وسأعيد ما قاله لى بلغتى؛ فقد كانت لغته رطانة لا تفهم إذا نقلتها عنه نصًّا. قال باسمًا:

– سأهيئ لنفسى طعامًا وشرابًا. نعم فإنى أهيئ طعامى بيدى دائمًا، ولا أحب أكلا إلا إذا طبخته وسويته، ومازجت بين ما يقلى منه وما يسلق، وقدرت ملحه وذررت عليه الأفاويه بمقدار.

ثم استمر يضرب الأمثال مما صنع، ويذكر الصنوف وتواريخ صنعها، وهو فى أثناء ذلك يذهب ويجىء يجمع الأحطاب فى ضوء القمر. فقلت له باسمًا: «هذا بديع. ولا شك فى أنك رجل ماهر». فنظر إلى مسرورًا وبدت نواجذه السوداء من فمه الأهتم، ثم مال على جعبته وأخذ ينكشها قائلا: «ليس هنا إلا بقايا مجففة. ولو كان فى الوقت فسحة لكان عشائى لحمًا طريًّا». ثم أشار بيده إلى الغابة وقال: «سأريك فى الغد إذا بقينا هنا كيف أسدد الرمية وكيف أثبت الطير فى كبد السماء».

فقلت له باسمًا: «إن من كان مثلك لم تعص له الوحوش أمرًا». فقال مرتاحًا: «وإذا شئت فإنى أريك كيف أطعن بالرمح وكيف أحطم بالدبوس، فإنى صاحب السبق فى هذه الفنون جميعًا».

فضحكت ضحكة لأخفى الرعشة التى سرت فى جسمى، وقلت مبادرًا: «لا لا، ليس فى هذه الحال التى نحن فيها ما يدعو إلى رمح أو سيف».

فمضى فى حديثه وجعل يصف لى مغامراته ومنازلاته، وكلما بدا على وجهى أثر من قوله زاد حماسة، حتى كان أحيانًا يمسك عن العمل لكى يشير بيديه. وفطنت إلى أننى أضيع عليه بعض وقته، فانتهزت فرصة سكوته لحظة وهو مشغول بقدح زنده ليورى به نارًا، فتسلك ذاهبًا نحو الغابة، ووقفت أتأمل أشجارها، ومالت نفسى إلى أن أجول فيها جولة ثم أعود بعد أن يكون صاحبى قد هيأ طعامه.

وسـرت فى الغابـة وكان للهواء فيها عطر خفيـف من رائحة الأوراق والأزهار، وكانت ألوان الشـجر مختلفة وأشكاله متباينة، فمنـه مـا كان غزير الورق ومنه ما كان عاريًـا، ومنه ما كان ضخم الجذع وما كان دقيقًا يتسـلق متوكئًـا على غيره. وجعلت أتنقل فى الغابة من بقعة ضاحية يغمرها نور القمر إلى أخرى ظليلة تتراقص فوقها الظلال، وكان الليل السـاجى يفعل فى نفسـى فعل السحر، فلم أشـعر بمرور الزمن ولا بطول السـير، ولم أتلفـت إلى ورائى لأنظـر أين صرت من صاحبى، حتـى رأيتنى بعد حين أمام صخرة وعـرة لم أنظرها إلا عندما صرت على خطـوات قليلة منها، كانها خرجت فجأة من جوف الأرض لتعترض سـبيلى. فاتجهت نحوها فوجدتها ربوة مهشـمة مدببة الجوانب كأن سطحها كله من أنياب وأظفار. وهى تنطوى علـى كهف يبعث الرهبة فى النفس، تخرج مـن ثناياه قناة فيها ماء صـاف كأنه بلور مذاب، ينسـاب جاريًا وهو يغنى بخرير يلذ للأسـماع، خافت يشـبه التهانف بالضحك فى مزاح العذارى. وكان يهبط إلى حوض من الصخر مهشم مصقول يلمع النـور فوقه فإذا هو يبدو أخضر مثـل قطعة من الزبرجد من أثـر ما عليـه من الطحلب الدقيـق. فوقفت لحظـات أتأمل المنظر البديع، وكانت عينى لم تقع من قبل على مثله، فشـملتنى نشوة، واهتزت نفسـى طربًا. ونسـيت كل ما كان مـن هجرتى ووحدتى، حتى لقد نسـيت جوعى، ووجدتنى أدندن بالغناء. وتواردت على

الألحان المشجية، فجلست على جانب الصخرة وغبت فى غمرة أشجانى، وجعلت أقلب عينى وأتمتع بالمنظر، وملأت صدرى من الهواء العطر، ووجدت كل حواسى نصيبًا من اللذة، من خرير الماء منسابًا فى جداوله، إلى ريح الزهر المشتعل فى خمائله، إلى لون الورد الناعس فى غلائله.

جلست هناك وقتًا لا أدرى أقصيرًا كان أم طويلا، ثم شعرت فجأة بشىء من الرهبة يمسنى من السكون العميق الذى حولى، فما كدت أتنبه له حتى خيل إلى أننى فى عالم صاخب مضطرب. سمعت خفق الأوراق على الأعواد، ووسوسة النسيم بين الغصون، وخشخشة الحشرات بين الحشائش، فاضطرب خيالى وقَفَّ شعر رأسى، ولم أطلق البقاء فى مكانى. وهممت بالرجوع إلى موضع صاحبى فنظرت حولى لأرى الطريق التى جئت منها فلم أجد أمامى إلا غابة شجراء، وضوء القمر يسطع من فوقها ويتخللها. فخيل إلى أن المكان قد امتلأ أرواحًا من الجان تتلاعب وتتواثب من حولى، وأسرعت فى سيرى وأنا أتلفت ورائى ولا أتبين لى طريقًا. وفيما أنا كذلك لاح لى عن بعد شىء يتحرك، يشبه أن يكون قطًا أو فهدًا أو ظبيًا أو أرنبًا أو غير ذلك مما يسير على أرض الغابات يلتمس قوتًا. فشعرت بوجهى يتقد، ورفعت يدى لألمس جبينى فوجدته باردًا تبلله قطرات من العرق. وحاولت أن أشجع نفسى بأن

أسمع صوتى، فحاولت أن أغنى، ولكن الألحان شردت عن ذهنى، وجعلت ألوم نفسى على هذا الفزع الذى لا سبب له وأجاهدها بكل ما استطعت أن أتذكره من الحكم. ولكن ذلك كله لم يجدنى شيئًا.

ثم سمعت صوتًا لا شك فى أنه كان صوت حيوان مسكين يعانى الآلام المبرحة بين أنياب عدو مفترس أو مخالبه أو أظافره. فوقفت حيث كنت وجعلت أستمع. وأمسكت أنفاسى فسمعت الصرخات تتوالى فى فزع، ثم سمعتها تضعف قليلا ثم انقطعت فجأة. لقد استسلم الحيوان المسكين بعد أن ضعف واسترخى وخضع لما لا حيلة له فيه، وذهب إلى المصير المحتوم فى جوف الوحش المفترس، كما ذهب ألوف وألوف من أسلافه على مر الدهر الطويل.

ولم يكن من العجيب أن يسطو حيوان على آخر فى الغابة، فإن هذا هو قانونها الأزلى. ولم يكن من العجيب أن أجد مثلا جديدًا من احتيال الكائنات على اقتناص الرزق، فإن قانون الغابة كان دائمًا هكذا: من عزَّ بزَّ، ومن غلب افترس، ومن استطاع صيدًا اصطاد، ومن قدر على الروغان راغ. ولكنى مع هذا اهتززت هزة عنيفة عند سماع ذلك الصوت. فلما عاد السكون العميق إلى الغابة، خيل إلى أن ذلك الصمت أكثر ضجة من أعنف الهيعات فى معامع الحرب. وصرت كلما خطوت خطوة تمثلت حولى نضالا متصلا فيه فتك وفيه فناء وفيه مطاردة وهروب. وكلما مررت بكومة من الأوراق الجافة وسمعت بينها خشخشة، تمثلت لى صورة معركة دامية بين قوى وضعيف

أو بين سـريع وبطيء. ولج بى التصور حتى ضاقت نفسـى بالسكون الشامل الذى لا ينطوى على سلام بل يستر تحته حربًا متصلة قاسية.

وتمنيـت لو تمـزف هذا الصمت عن زمجرة الأسـود وضحكات الضباع وفحيح الأفاعى، فقد كان ذلك أرفق بنفسـى لأنه لا يخدعها بمظهر كاذب من سلام مموه خداع. وبدت لى الحياة الإنسانية عند ذلـك جنة نعيم إذا قيسـت بالحياة فى هذه الغابة السـاكنة، لأن الإنسـان قد أقام قوانين تحمى الضعفاء من الأقوياء، وتبيح للبطيء أن يسـعى على بطئه، وللصغير أن يبقى على هوان أمره. وأسرعت فى سـيرى وأذهلنى الاضطراب عن التفكير فى مكانى أو فى المآل الذى ينتهى إليه سـيرى، وجعلت أخبط بين الشـجر خبط عشواء لا أبالـى أين تحملنى قدماى. ولم أتنبه إلا فجأة وقد لاحت لى بين الأشجار عن بعد أنوار لهيب تسطع فوق الجذوع والأغصان. فعادت إلى صورة صاحبى الفارس، فاتجهت إليه وكان السير قد أجهدنى واضطراب الفكر قد نال منى، فأحسسـت بتعب شـديد بشـيع فى أعضائى، وتمنيت لو اتخذت من بعض أكوام الورق الجاف فراشًـا. ولكنى تحاملت على نفسى حتى بلغت مكان الفارس، فوقفت لحظة أنظـر إليه وهو منصرف إلى إعداد طعامه، ينحنى على النار ليضع فيها أعوادًا تزيدها ضرامًا، ويميل عليها ينفخ فيها ورأسـه الأصلع يلمع فى ضوئها والشـرر يتطاير من حوله. فلما أحس بمقدمى رفع رأسـه وهو يبسـم سـرورًا، حتى بدت أسنانه السـوداء من تحت

شاربيه. فارتميت إلى جانبه خائر القوى وخرجت منى آهة نفست بهـا عن صدرى. فقال لى بعد أن نفخ فى النار نفخة: «لقد سـرت طويلا». فقلت له فى صوت ضعيف: «أما نضج طعامك»؟

فقال فى مرح: نعم كاد ينتهى. حساء وأرز بقطعة من زند البقر.

فقلت له: هنيئًا مريئًا.

فقال وهو يبلع ريقه: وسنبوذج ولوزينج.

فقلت ضاحكًا: إنها وليمة.

فضحك وقال وهو يشير إلى زق من جلد المعز: وكأس من النبيذ المعتق.

فقلت مبادرًا: أما هذا فلا شأن لى به.

وما كـدت أنطق بهذه الكلمة حتى خجلت خجلا شـديدًا، لأن لفظى خاننى. كنت حقًا شـديد الجـوع، ولكن ما كان ينبغى لى أن أدعو نفسـى إلى طعامـه. وكأنه قد لحظ خجلى فقـال لى مترفقًا: ستذوق طعامى وستحكم على مهارتى.

فسرى عنى وقلت مبتسـمًا: أشكرك. إنك رجل كريم. فنظر إلى مسرورًا، وهز رأسه مرتاحًا إلى مديحى، وكشف غطاء القدر وجعل يقلـب ما فيها بخنجره وهو يمص شـفتيه، ولا أكتـم أن رائحتها كانت تنفذ إلى أعماق صدرى طيبة شهية. وأخرج قطعة لحم فجسها بظفره ثم أعادها إلى القدر، وتحرك فى مجلسه وفرك يديه مسرورًا وقال: «سـيكون عشـاء عظيمًا». ثم قام يهيئ السـفرة، فقمت معه لأساعده، وما هو إلا قليل حتى كنا نتسابق فى التقام الطعام.

ولـم يقم الفارس عن طعامه حتى شـرب أكثـر زقه وتركه على الأرض مفشوشًـا، وكنت قد أمتعت نفسـى بالطيبات وأثنيت على طعمها ورائحتها وكان القمر لا يزال فى كبد السـماء فقمت لأصلى ما فاتنى من الأوقات. وجلسـنا بعد ذلك نتسامر، حتى طالت ظلال الأشجار تحت القمر المنحدر، واشتد برد الليل فتلففت فى ثيابى، واضطجعت فوق كومة من الحشـيش الجاف، وتغطيت بشىء منه، وعمد صاحبى إلى كومة أخرى ففعل كما فعلت.

■■■

obeikandl.com

١٢

قمت فى الصباح فتوضأت وصليت. وكانت الصلاة إلى جانب الغابة قرة عين. فهناك كنت أتمثل قدرة الله فى خلق هذا الكون البديع، وكانت أصلى بقلبى وعقلى ولسانى. ثم أخذ الفارس يستعد للسير بعد أن أصاب شيئًا من الزاد وأشركنى فيه ونحن على عجل، وأقبل على فرسه يمسحه ويخدمه وأنا أنظر إليه متعجبًا وأسائل نفسى عما جمعنى به. فسرحت أفكارى فيما رأيته الليلة السابقة من نضال بين الأحياء، حتى كدت أعتقد أن الحياة الإنسانية ليست إلا جزءًا من حياة الغابة، وكدت أنكر ما توهمته من فضل امتاز به الإنسان على سائر الحيوان، إذ أقام لنفسه نظامًا وسن من القوانين ما يحمى الضعيف من القوى، ويكفل الحياة للصغير والبطىء. كدت أنكر كل هذا، بل لقد خطر لى أن الحيوان فى الغابة أسلم وآمن فيما بينه وبين نفسه، لأن النضال إنما يكون بين صنوف مختلفة منه، فالأسود لا يفترس بعضها بعضًا، ولا يتخذ بعضها البعض خدمًا، ولا تفرق بين أنفسها بحدود، ولا تجعل فى جنسها أممًا يحتقر بعضها بعضًا أو تتقاتل وتتفانى فيما بينها. وهى لا تتناكر ولا تتشاحن لأن الله لم يصبها بذلك المصاب الوبيل: تحريك اللسان بنطق اللغات. وليس فيما من يميز نفسه على سواه بعلامة مصطلح

عليها، فلونها واحد وأنيابها متشابهة وذيولها سواء فى طولها، ولم يمتحنها الله بمحنة الملابس التى يتخذها الإنسان وسيلة للتفريق والتمييز بين بعض وبعض. فكل فرد فى الغابة مساو لكل فرد آخر من جنسه. جعلت أفكر فى هذا حتى بلغ بى الأمر أن تمردت على الإنسانية، وجعلت أشتد فى تعنيفها واتهمتها بأنها تدارى سيئاتها تحت ستار خداع استعانت به على إخفاء الحقائق عن نفسها.

لقد بدا لى عند ذلك أننى أسير وراء الفارس كما يسير فرسه من تحته، لا أملك أن أتحول عنه كما لا يملك الفرس أن يتحول عنه، وأنه إنما يخدعنى إذ يترفق بى أو يبسم فى وجهى؛ فإن جوهر الأمر كله أنه أخضع إرادتى لإرادته، وليس بعد هذا مرتبة أبلغ فى القسر والعدوان.

وساقتنى هذه الأفكار بدفعها حتى تصورت الإنسان أحمق الكائنات وأبشعها وأقساها. تمثلته عند ذلك عبداً للألفاظ التى كان يحلو له منذ القدم أن يخدع نفسه بها. كان فى العصور السالفة ينحت قطعة من الحجر ويسميها بلفظ جميل فإذا هى عنده إله مقدس يعبده ويتقرب إليه، ويقوم عليه السدنة والكهنة يتجرون باسمه الجميل. ثم ها هو ذا اليوم يجعل من الجرائم فضائل ويسميها أسماء جميلة – يسميها «الحرب» و «المجد» و «العظمة» وما هى إلا جرائم قتل ونهب وتدمير. هذا «تيمور» وما أحراه أن يكون فى أعين الناس أشد المجرمين خطراً، وما أجدر الناس بأن يقيدوه فى السلاسل ويجعلوه

فى مأمن لا يستطيع الهروب منه. ولكنه أفلح فى أن يسمى جرائمه أسماء جملية فاستطاع أن يفوز بالسلطان الأعظم فى الأرض.

ومر الوقت سريعًا وأنا أنظر إلى صاحبى وأناجى هذه الخواطر المضطربة، ثم رأيته قام وركب وأشار إلى أن أسير وراءه، فقمت خاشعًا ومضى فى سبيله يهز رجليه ويغنى على عادته. ولو واتتنى خفة النفس لغنيت مثله، ولكن أفكارى أبعدت عنى الألحان جميعًا. فسرت مطرقًا حتى سمعته بعد حين يناديني. فرفعت رأسى فرأيته يومئ إلى أن أقترب منه. ثم سألنى هل أحب الركوب وراءه؟ فدار رأسى ولم أدر بم أجيب. فظن الرجل أننى أتردد لأنى لا أعرف الركوب، فتحرك وجعل يبين لى الطريقة المثلى لمن أراد أن يعلو ظهر الخيل، وعلمنى كيف أضع رجلى اليسرى فى الركاب وكيف أتحامل عليه وأثب على ظهر الفرس، ثم مد يده لكى يساعدنى حتى علوته من ورائه. وخشيت أن يرانا أحد على هذه الحال فيسخر منا فتلفت حولى فلم أجد أحداً. فسكنت وراءه وأمسكت بردائه، ووجدت بعد قليل راحة فى الركوب بعد السير الذى هد قواى فى اليوم السابق.

واتصل الحديث بيننا، وكنت أجد بعض المشقة فى فهم أقواله، فقد كانت لكنته الأعجمية تخفى ألفاظه، ويزيدها فسادًا أنه كان أهتم لا يحسن النطق بالحروف. ولكنى مع هذا كنت أفهم قوله تخمينًا، ولم تكن الحاجة تدعو إلى فهم كل كلامه. فكان إذا أراد مخاطبتى

لفت رأسه نحوى فأرى صفحة وجهه كأنها صورة رسمها طفل فى ورقة يعبث فيها، وإذا أردت أنا مخاطبته أخرجت رأسى من ورائه حتى يرانى. ولست أدرى كيف كان يرى صفحة وجهى، ولكنه كان بين حين وآخر يضحك إذا وقعت عينه على عينى حتى يبدى أسنانه السوداء المنثورة فى فمه. فكنت أرد عليه بضحكة مثلها تخرج من ثنايا قلبى. وكان أكثر ما قاله لى لا يزيد على وصف مغامراته فى الحروب مع تيمور. ويمكن للإنسان فى سهولة أن يلخص ذلك كله فى بضع كلمات: إنه شارك فى سفك دماء الكثيرين من بنى آدم.

وكنت أحيانًا أضيق بحديثه، وأهم بأن أقذف نفسى من ورائه لولا أن الجواد كان يسير. فكنت أحاول أن أصرف حديثه إلى معنى لا يثير فى خيالى مناظر الدماء، واستطعت بعد لأى أن أستدرجه إلى التحدث عن نفسه، وعن أولاده، فوجدت ذلك الحديث أكثر إيناسًا لأنه دلنى على أن الرجل كان آخر الأمر إنسانًا يعرف معنى المحبة.

وأخيراً دخلنا ريف جانبولاد، وكان منظره بهيجًا. كان الهواء يهب على البساط الأخضر فيتموج سطحه كما يتموج البحر أمام هبات النسيم. وكان الزهر يتخلل الخضرة بين أحمر وأبيض وأصفر، ومن فوقه ترفرف الفراشات متنقلة متقلبة تتواثب كأنها تلاعب الزهرات فوق أعوادها وتضحك منها إذ هى لا تستطيع أن تثب وراءها. فملأنى المنظر مرحًا واهتزت نفسى بعواطف نقلتنى

إلى عالم من الأحلام، فنسيت الفارس وحديثه وانطويت على نفسى أتأمل ما طبع فيها من الصور البديعة، وتصورت عليّة ابنة علاء الدين وقلت، فى نفسى: «أين أنت الآن ياملاك السماء؟ وأين انتهى بك المطاف الذى شردك إليه تيمور؟» فما صحوت من تأملى إلا على وكزة فى صدرى، فإذا بصاحبى يدفعنى بمفصل مرفقه دفعًا مؤلمًا. فقلت له وأنا أكظم غيظى: «ماذا تريد منى؟».

فقال لى فى حنق: «ألا تسمع؟ أقول لك انزل. انزل وأحضر اثنتين من هذه».

فلم أفهم وقلت له مستفهمًا: «اثنتين من أى شئ؟».

فأدار وجهه نحوى وقال: «نعم. اثنتين من هذه..».

وأشار برأسه إلى حقل مزروع بالكرنب. ما كان أعجب صاحبى هذا فى تقلب نزواته!

وكان الحقل يانع الخضرة يغطيه كرنب كبير تفتحت أوراقه الحضراء عن قلب أبيض صاف. فقلت متردداً: «بكم؟».

فوكزنى مرة أخرى وقال: «انزل. هات اثنتين. ألا تفهم؟».

فلم أجد مهربًا من وكزه إلا بأن أتحرك وأهم بالنزول، وكان لا يزال واضعًا قدميه فى الركاب يهزهما والجواد سائر به قدمًا. فصحت به: «قف الفرس».

فشد اللجام ورفع قدمه اليسرى من الركاب ثم ساعدنى على النزول. ولست أدرى ماذا فعلت، فقد وقعت عن ظهر الجواد

وتشبثت بالفارس حتى كدت أوقعه معى، لولا أنه دفعنى فوقعت على الأرض وحدى، وقمت أنفض التراب عن ثيابى. ثم اعتدلت وفى وجهى شىء من التحدى، فصاح بى غاضبًا «أسرع ثم الحق بى» وهمز الجواد وسار فى طريقه. فلم أجد بدًّا من الطاعة، وتلفت حولى فلم أجد أحداً، فملت إلى طرف الحقل ونزعت منه كرنبة قريبة، وما كدت أفعل حتى سمعت صوتًا يصيح بى: «ماذا تفعل؟».

ثم خرج رجل من عريش فى أقصى الحقل وجاء يجرى نحوى. فنظرت نحو الفارس فوجدته بعد عنى ولا يزال يهز رجليه فوق الفرس، فوضعت الكرنبة على الأرض وأسرعت لألحق به. ولكن صاحب الحقل لم يدعنى، وجرى ورائى وهو يصيح ويهدد ويشتم، حتى أدركنى وأخذ بتلابيبى. وسمع الفارس الصوت فالتفت ووقف الفرس، ثم لوى عنانه وأقبل نحونا مسرعًا. وكان الرجل يدفعنى فى صدرى ويكيل لى السباب كيلا، ثم رفع هراوة فى يده وكاد يهوى بها على رأسى، لولا أن الفارس همز جواده وأدركنى. فلما رآه الرجل أرخى يده وأنزل هراوته وأطلقنى من قبضته، وقال فى خوف وهو ينظر نحوه: «هل هو معك ياسيدى» فأقبل عليه صاحبى وأخذ يقتص منه بما شتمنى به، ورفع يده بالسوط. فصاح الرجل: «لم أعرف أنه معك». ثم جرى نحو الحقل فرفع الكرنبة التى قطعتها وقلع معها ثلاثًا أخرى وجاء يحمل كل اثنتين فى يد من يديه الغليظتين، حتى قدمها إلى – أربع كرنبات عظيمة منفوشة.

فقلت له حانقًا: «ومن سألك أيها الأحمق أن تأتى بكل هذه؟» فانفجر الرجل كأنه أراد أن يفرغ كل غيظه فىّ وقال صائحًا: «خذ فاحمل. خذ أيها الكسول» ثم جعل يدفع إلى واحدة بعد أخرى وهو كلما أعطانى إحداها شتم شتمة جديدة ودفعنى فى يدى إذ يناولنى. فلما فرغ منها انصرف عنا وهو يغمغم. وجعلت أحتال على طريقة أستطيع بها أن أحمل حملى، وقضيت فى ذلك حينًا أضعه فى أشكال وأوضاع وهو ينفرط ويتساقط، حتى استطعت أخيراً أن أجمع كل كرنبتين على كتف وأمسك رأسيهما بيدى من أمام، ونظرت إلى الفارس منتصراً. فارتاح لما رأى وقال لى «عفارم»! ثم ابتسم وهمز جواده وسار وسرت خلفه ولم يبق ثمة أمل فى ركوبى.

لم نلبث أن أوغلنا فى ريف جانبولاد، وكثر الناس على الطريق وفى الحقول، وكانوا كلما مر بى أحدهم نظر إلى نظرة طويلة يتأملنى وأنا سائر وحملى يهتز فوق كتفى مع حركة جسمى، ثم يرفع كم ثوبه إلى وجهه ليخفى تحته ضحكته. فكنت كلما مررت بواحد منهم نظرت إليه، حتى إذا رأيته يرفع كمه بادرت كذلك بضحكة، فترتفع على أثر ذلك قهقهة صريحة مرحة كانت ترن فى أذنى أحلى رنين. أيها الأشقياء من بنى الإنسان، التمسوا الضحك كلما أحسستم بالرغبة فى البكاء. التمسوا الضحك كلما شعرتم بدبيب اليأس بين ضلوعكم، فإن اليأس لا يلبث أن يذوب تحت نوره الساطع.

هذا أمر مجرب عرفته من طول ما قاسيت فى الحياة.

واقتربنا بعد حين من قرية وكانت الشمس قد علت فى كبد السماء واشتد الحر، فتحرك الفارس فى سرجه ونزل إلى ظل شجرة فى جانب ساقية على مقربة من القرية، واخترت لنفسى مكانًا معتزلا وجلست أنظر إلى الحقول وإلى الناس ممن يذهبون إلى القرية أو يخرجون منها.

ثم تنبهت على صوت صاحبى يناديني: «هو. ألا تسمع؟» وكان إلى ذلك الوقت لم يسألنى عن اسمى. فعذرته فى جفاء ندائه لى، ونظرت إليه مستفهمًا. فأشار إلى بيده أن أذهب إليه. ثم قال: «ألم تجع بعد؟» وكنت بغير شك جائعًا. فهززت رأسى أن نعم، وحسبت أنه كان يخفى طعامًا فى موضع لم أره. فقال لى: «إذاً ماذا نفعل؟» ففاجأنى سؤاله ولم أحر جوابًا. أيسألنى أنا عما نفعل؟ وهل سرت وراءه من ماهوش لأدبر له طعامه؟ ونظرت إليه والعجب مرتسم على وجهى. فأعاد قوله: «ألا تسمع؟ ماذا نفعل؟...» فقلت له: «إذا لم نجد أكلا فلا يمكن الأكل». فلم يعجبه ردى وقبض وجهه وأطرق قليلا ثم رفع رأسه باسمًا وغمز بعينه مشيراً نحو القرية. فثارت فى نفسى شكوك كثيرة، وهززت رأسى مستفهمًا. فضحك وقال: «اذهب إلى هناك. فالتمس لنا طعامًا». وكأن حجراً قد أصاب رأسى عند ذلك، فتراجعت أترنح وصحت «ماذا؟» فأعاد على قوله وإيماءته وبسمته، فزادت حيرتى. إن أهل القرية كثيرون يبلغون

المئـات أو الألوف، وقد عجزت عن صاحب حقل الكرنب وحده فما بالى بهؤلاء جميعًا؟ واسـتقر رأيى على الإباء. ولم يكن الجوع شاقًا علىّ فقـد تعودت صوم رمضان فلن أعجز عن صيام يوم واحد. ولكن الفارس صاح بى: «ماذا يؤخرك عن السـير؟» فتجرأت وقلت: «إننى لا أملـك نقـودًا». فنظر إلى نظرة فيها ازدراء، ولكنه سـكن لحظة يفكر، ثم لمعت عيناه وقال متحمسًا: «عفارم! خذ هذه فبعها واشتر بثمنها»، وأشـار إلى الكرنب. فسمرت فى موضعى ولم أتحرك، إذ كانت هذه أخت الأخرى، ولا خيار بين البيض الفاسـد. فلما رأى الرجـل أننى لا أتحرك قام وهزنى من كتفى هزة عنيفة وصاح بى: «هو. لا تضيـع الوقت».فلم أجد بدًّا مـن الطاعة، وحملت الكرنب وسـرت به نحو القرية. فلما دخلتهـا وجدت جدرانًا من الطين قد رصت رصًّا ليس فيها سوى فتحات صغيرة أذكرتنى بيوت الدجاج. ورأيت الدواب تخرج منها، فحسـبتها حظائر الماشـية جعلت فى طـرف من القريـة ولكنى كلما سـرت لم أر إلا جدرانًا متشـابهة ورأيـت الناس يدخلون ويخرجون منهـا بثيابهم المتربة وعيونهم الرمصاء. مسـاكين هؤلاء، هل يكون بينهم من يشـترى الكرنب؟ وسـرت حتـى بلغت آخر القريـة فوجدت براحًا مـن الأرض فيه أطفال يلعبون بكرة يتقاذفون بها. وكنت أحب الأطفال منذ خلقنى الله، ولا أرى منهـم أحداً حتى أذكـر ولدىّ عجيبًا وجميلة. ما كان أشـوقنى إليهما وما كان أشـد حنينى إلى رؤيتهمـا! لقد تركتهما

منـذ يومين طويلين كأنهما دهر مـن الدهور. وكنت لا أدرى كيف أمسـيا ولا كيف أصبحا ولا أعلم هل أصابا عشـاء أم فاتهما العشاء والإفطـار. الله لهما من حبيبين فهو أشـفق عليهما منى وأبر بهما. وتقدمت نحو الأطفال وأنا أمسح دمعتى، ووقفت أنظر إليهم وشفتاى تختلجان وقلبى يخفق.

كـم كان فى هؤلاء من أمثـال ولدى! وهـل كان فيهم من تركه أبوه وهاجر من القرية كما هاجرت؟ مساكين هؤلاء الأبرياء، كانوا يلعبون فـى أسمالهم الباليـة ويفركون أعينهم الرمصـاء بأيديهم الملوثة. وتأملت وجوههم الشـاحبة. لقد كانـت جميلة لو امتلأت لحمًا ودمًا. ونظرت إلى أقدامهم السـوداء. لم تكن سـوداء وإنما هو الطـين الكثيف الـذى كان يغطيهـا بلونه الكالح القاتم. مسـاكين هـم ما كان أظرفهم فى تواثبهـم وتضاحكهم وتعابثهم! وتحركت نفسى إليهم فلم أملك أن اندفعت نحوهم لكى أشاطرهم ما هم فيه، وأعلمهم كيف يسددون الرمية، فقد كنت فى صباى عميدًا للصبيان فـى لعبهم. وما كـدت أقترب منهم حتى سـددت إلىّ الكرة من يد أحدهم، فوقعت فـى صدرى وصدمتنى صدمة كدت أصرخ من ألمها. لم تكـن كرة علم الله بل قطعـة من الطين اليابس القاسـى. فوقفت ووضعـت الكرنب على الأرض لأمسـح ما علق بثيابى من الوسـخ، وما كاد الشـياطين يبصروننى أفعل هـذا حتى علا ضحكهم وأقبلوا علىّ يصفقون، ويسـتعدون لكى يتخذونى هدفا لقذائفهم، فخشيت

على نفسى وحملت الكرنب مسرعًا ورجعت من حيث جئت وأنا أسمع تناديهم وتضاحكهم وتحريض بعضهم على أن يسرعوا لتسديد قذيفة جديدة ليدركوا منى متعة أخيرة قبل منصرفى. وكان قلبى مع ذلك لا يزال يخفق حنينًا إليهم عندما بلغت أقصى الميدان وبعدت عن مدى رمايتهم.

عدت بعد ذلك إلى نفسى وذكرت الكرنب والفارس، وجعلت أفكر فى طريقة أحمل بها من يستطيع الشراء من أهل القرية على شراء سلعتى، فتذكرت الباعة فى وطنى ماهوش ينادون على سلعهم بالأسجاع والنغمات المطربة، ويصفونها وصفًا شعريًّا يحببها إلى الشارين. فجعلت أنادى على الكرنب وأتغنى به وأستعير له كثيراً من صفات الزهر والعطور والحرير. ولست أدرى ما الذى حمل أهل القرية على أن يجتمعوا حولى ويضحكوا كلما سمعوا ندائى، كأننى كنت أناديهم لأضاحكهم. ومضى وقت طويل وأنا أسير والناس يسيرون من ورائى نساء وصبية وشبانًا ولم يتقدم أحدهم للشراء، حتى يئست وعزمت على الرجوع خائبًا. ولكنى فكرت فى ثورة صاحبى إذا عدت إليه بغير طعام، فنظرت إلى الجمع الذى كان حولى وسكت عن الغناء، وقلت لهم بكلام ساذج: «ألا يريد أحد فى هذه القرية أن يشترى كرنبة منى؟» فضحكوا جميعًا واقتربت منى عجوز فقالت ضاحكة: «فعل الله لك. هل تريد بيعًا؟ لقد كنا نحسب أنك تغنى إعجابًا بخضرك» فأجبتها منكسراً: «أسأل الله لك الستر

يا أمـاه، لم يكن بى إعجاب بل لقد ضقت بهـا وثقلت على كاهلى. وإنمـا غنيت ليشـترى الناس منـى على عادة قومـى فى ماهوش». فضحكت وضحك سـائر من حولى وتصايحوا فيمـا بينهم: «غريب غريـب!» وتواثبوا إلى من كل ناحية يقلبون ملابسـى ويجسـونها ويمسـحون أيديهم عليها، وجعلوا يمطرونني بالأسـئلة عن وطنى ومتـى جئت وإلى أين أذهب، ولم أسـتطع أن أجيب عن شـىء من ذلك كله بل شـعرت بضيق شديد وصحت بهم فى شىء من الضجر: «هذه كرنبات فاشتروها منى بدريهمات أشترى بها طعامًا». وكأنهم سـمعوا منى مزاحًا فصاحوا ضاحكين وقالت إحدى البنات: «غن لنا مرة أخرى ياعم». فغضبت ونظرت إليها فى ألم وكدت أصيح صيحة أخرى مؤنبًا، ولكنى سـمعت مـن ورائى صوتًـا ينادى: «عفارم!» فعرفـت الصوت ونظرت إلـى ورائى فى فزع وأردت أن أشـكو إلى الفارس مـا لقيت، ولكنى رأيت وجهه يتحـرك بالغضب، ورأيت شـاربه يهتز كشـارب القط إذا كشـر، ولم أدر إلا وقد اقترب منى وأخذ الكرنب فألقاه على الأرض فى عنف، فتحطم وتطايرت أجزاؤه وتناثرت أوراقه الرطبة البيضاء، ثم صاح فى وحشية: «ما هذا؟».

ومـا كاد الجمع يـراه حتى انفـض من حولى، فجرى النسـاء والصبية وهم يصرخون، وانصرف الرجال يتلفتون إلى وراء. فقلت لـه وقد غضبت: «ماذا؟» فصاح بى صيحة لـم أفهم معناها ثم مضى إلـى أقرب منـزل فطرقه وخرجت إليه امـرأة فأمرها أن تحضرله

طعامًا، فأسرعت داخلة إلى الدار، ولم تبطئ حتى جاءت إليه بما عندها من خبز وجبن وبيض. وما كان أشد عجبي عند ما رأيت المنازل المجاورة كلها قد فتحت، وأقبل الناس منها يسعون زرافات ووحدانًا، وكل منهم يحمل شيئًا في يديه أو في صفحة أو قرطاس، وأخذت أجمع ما يأتون به حتى لم أدر كيف أحمله. وسار الفارس في كبرياء إلى خارج القرية عائدًا إلى ظل الشجرة وسرت وراءه أحمل ما استطعت حمله في يدي، وسار الناس من ورائنا في موكب يحملون ما جاءوا به حتى بلغنا مجلسنا، فألقوا ما معهم وهم يتأدبون ويظهرون المودة. ثم ساروا سراعًا كأنهم يلتمسون النجاة. ووالله لو كنت وحدي لقضيت النهار كله في سير ولعدت آخر النهار بمعدة خاوية.

أكلنا هنيئًا ثم جلسنا نتسامر، وقد عادت أخلاق صاحبي إلى الموادعة ولم أتمالك أن سألته: «أيعرفك أهل هذه القرية؟ إنهم قد أكرموك حقًّا». فقال وهو يضحك: «إنهم لا يعرفون إلا هذه الريشة». ثم طأطأ رأسه وهز ريشته الزقاء. وقال وهو يبتسم ابتسامة هادئة: «إذا أردت أن تعيش فاعرف كيف تعيش. خذ ما تستطيع قسرًا. اعرف كيف تأمر ثم تملأ جيبك. املأ جيبك ما استطعت ثم سر رافعًا رأسك. خذ ضريبتك أني وجدت إليها سبيلا».

نعم هكذا الدنيا، وقد كانت هدايا المساكين منذ القدم ضريبة.

وبعـد أن قضينا فى الراحة سـاعة قمنا إلى السـير، وأبيت أن أركب عندما سألنى الفارس أن أفعل، بل شكرته وسرت على قدمى أتأمـل ما قالـه لى، وقلبت نظـرى فى الريف وما فيـه من جمال الطبيعـة، وتمنيت لـو كان أهل القرية بعض حيـوان الحقل. لقد كانت قطعان الماشية ترعى فى المرج الأخضر سمينة بيضاء ناصعة أو صفراء فاقعة، تسـر النظر بما عليها من كسوة نظيفة حباها بها الله جل وعلا.

ومـر وقت طويل وأنا سـائر أفكر فيما يقـع عليه بصرى، حتى سـمعت صوت صاحبى ينادينى، فنظرت إليه فرأيته يشير بأصبعه إلى الأفق. وكان النهار قد انقضى إلا أقله، وأقبل الليل وأخذ النور يتضاءل، ولاحت على الأفق مدينة كأنها صورة رسمها صانع ماهر فـوق طومار كاغد. وبعد قليل لمعت الأنـوار تبص خافتة من بعيد منثورة على الأفق فى غير نظام. وخفق قلبى عندما سـمعت الفارس يصيح وهو يشير إلى المدينة: «جانبولاد».

■■■

١٣

لـم تدع لى الأيام الأولى من مقامى فـى جانبولاد فراغًا للتفكير ولا للترفيه عن نفسـى، فقد كنت فى شـغل شـاغل من أمر حياتى الجديدة، وما ينبغى لى فيها من وسائل العيش. فاتخذت لى مسكنًا فى جوار صاحبى الفارس غرفة وفناء واسـعًا تسطع فيه الشمس من شـروقها إلى غروبها. وأعددت فيه القليل من الأثاث، ولم أنس أن أبعث مـع بعض التجار خبراً يطمئن أهلى فى ماهوش، وأرسـلت إليهم شيئًا من الرزق الذى أصبته.

ولما استشـعرت الاطمئنان إلى حياتى الجديـدة، أحذت أدير عينى فيما حولى وأتحسس أحوال البلد الذى حللت فيه.

وجانبولاد مدينـة عظيمة تجتمع فيها خيـرات ريف خصب. وكانـت من قبل تراثًا لعلاء الدين سـلطان ماهوش، ثم نزعها منه تيمور فيما نزعه من أرض السلاطين.

مسـكين علاء الدين، إننى لا أذكره إلا ذكرت الدين والمكرمات جميعًا. ولكن أبر السلاطين ليس فى هذه العصور أقواهم وأعظمهم، لأن تيمور لم يدع عظمة لغير سفاح الدماء. وعلية ابنة علاء الدين، إن قلبـى لم يخل يومًا من صورتها، ومـا زالت تؤنس أحلامى فى حلى وترحالى.

أيها القلب اتئد فما من حيلة لك إلا أن تقنع بأطياف الأحلام! ومـا عليـة مما أنت فيـه؟ ما هى إلا صـورة، فلتقنـع بصورتها ولتجعلها نجية وحى العلا.

قضيت الأيام فى هـذه المدينة أتعلم كل يوم معنى جديدًا. من غريب أمر الإنسان أنه يرى فى الأجنبى ما لا يراه فى البلد الذى ولد وعاش فيه. فكل ما يحيط بالإنسـان فى بلده مألوف معروف، مع أنه قد يكون للأجنبى عجبًا من العجب.

ولسـت أقصد هنـا أن أصف أهل جانبولاد لأبـدى فيهم رأيًا، فمـن ذا الذى نصب بعض الناس ليحكموا على البعض؟ لا بل إنى أحس فى نفسى أشـد الحاجة إلى عطف الآخرين على وتغاضيهم عن عيوبى، فلسـت بمن يتلمس العيوب أو يعد السقطات. علمتنى الحياة أن آخذ الناس كما أراهم، فهكذا خلقهم الله وهكذا أراد لهم أن يعيشوا. إنهم من طين الأرض لا يستطيعون أن يكونوا من ملائك السماء، وما أحرانا إذا رأينا العيوب أن يزيد عطفنا على أصحابها ورثاؤنا لهم، لأننا من البشـر نحس ثقل الطين فى طبعنا. وأكرم ما يستطيعه إنسان أن يملأ قلبه بالعطف على المخطئ والآثم، لأن هؤلاء أحوج إخوانه فى البشرية إلى عطفه.

ومـع هذا كله فالحسـن والقبح أمران يتوقفـان على تقدير كل فرد، وقد يكون الشـىء حسنًا فى عين إنسان فإذا به نهاية القبح فى عين إنسان آخر.

ولقد كـدت أعدل عن أن أقص حرفًا واحدًا فى وصف جانبولاد، لـولا أننى أردت أن أتحدث ببعض ذكريـات حياتى فيها، وأتأمل مناظر الماضى، كما يتأمل مناظر السـهل مـن صعد فى الجبل إلى قمته. فإذا لم يجد فى تأمله درسًا يستفيده لم يخل من متعة الذكرى.

كان صاحبى الفارس أول من عاشرت من أهل المدينة، وقد وجدت على طول الزمن أنه فى دخيلة نفسه إنسان. عرفت فيه أموراً كثيرة دلتنى على أنه من أرق الناس نفسًـا ومن ألينهم شـكيمة. واسـمه «طوطاط» ويعرف بين العامة باسـم «وطواط»، فإن لأهل «جانبولاد» عادة فى تسـمية حكامهم أسـماء يخترعونهـا، أو يحرفونها عن أسـمائهم، أو يفيضـون عليها بعـض أفاويه مـن فكاهتهم. وأهل جانبـولاد من أحلى الناس فكاهة، وهذا مما حببهم إلى، فالفكاهة أولى علامات الإنسانية. وهم يجدون فى فكاهتهم ترفيهًا كثيرًا مما يعانون من مشقات الحياة. وخواص جانبولاد لا يخشون من عامتها شيئًا هو أشد عليهم من هذه الفكاهة الحلوة اللاذعة.

وكان صاحبـى الفارس لا يملك فى بيته أمـرًا ولا نهيًا، لأن له فى بيته امرأة تسـيره وهو بذلك سعيد، لا يرد لها أمرًا، ولا يفكر معها فى شىء، بل يترك لها قياده حتى يفرغ لما هو أجدر بعنايته شـأنًا. فهو إن كان فى طرق جانبولاد أسـداً لم يزد فى داره على أن يكون حملا وديعًا.

وكان فى«طوطاط» إخـلاص ومودة، حتى كدت أعده صديقًا. بل لقد كان له علىَّ فضل فيما بعد لن أنسـاه له أبد الدهر. ولكنه رجل صاحب نزوات تثور به بين حين وحين، إذا ثارت فلا يدرى المرء إلام تنتهـى به. وقد اعترته نزوة من هذه ونحن معًا فى داره وكان قد شـرب بعض النبيذ وطرب ثم عربد، فعزم على أن أشرب معه. وشـكرته معتذرًا فألح علىَّ، ثم بالغ حتى حلف بالطلاق لأشـربن معـه، وكان ذلك على مسـمع من زوجه. فوقعت فـى حيرة لم أدر معهـا ما يجب على أن أفعل. فهل أعصـى الله وأقارف إثم الخمر، أم أطيع الله وأفرق بينه وبين امرأته؟

ولـم يكن التفريق بينهما هو الذى يزعجنى، لأن أكبر ظنى أنه كان خيـراً له لو تزوج أخرى تكون أليـن منها جانبًا وأرفق به فى التعتعة. وإنما الذى حرت فيه هو التماس طريق الخلاص من بيته إذا أنـا لـم أنزل على حكمه وأبر له يمينه، فـإن الزوجة ما كانت تتركنى أخرج من دارها سـليما. فاضطررت بعد التأمل إلى أن آخذ الكأس من يده، وحسـبت أن هذا يخرجنى من الحرج. ولكنه أبى وأصر على أن أنادمه سـائر الليلة، ولم يجدنى معه اعتذار بأمر من أمور الدين أو الصحة، فكنت كلما أبديت له عذرًا قطع علىَّ السبيل بيميـن جديدة. وجعل يعجب منـى إذ أريد أن أعيش فى جانبولاد بغير أن أتمتـع بمباهج الحياة، وحلف لى أغلظ الأيمان أننى أكون ضحكـة بين الناس إذا أنا أسـايرهم فى حياتهـم. فأخذت الكأس

ورفعتهـا إلى فمـى ومصصت منها مصة أظـن الله يغفرها لى، فقد قصدت بهـا أن أبر له يمينه. ثم قمت مسـرعًا فذهبت إلى الخلاء وادعيـت أن بردًا أصابنى، حتى إذا ما صـرت خارج القاعة قذفت بنصف ما فى الكأس ثم عدت لأنادمه. وكلما رأيته ينظر إلىَّ رفعت الكأس نحو فمى وقمت مرة أخرى إلى الخلاء.

ولم يطل بى الخوف منه بعد قليل، فقد شغله عنى طربه عندما دب الشـراب فى دمه، وكأنى به قد تمنى لو أمسكت عن مشاركته بعـد ثلاث كؤوس، حتى لا أنقص ما بقى له فى الدن، ولهذا رأيته لا يصر على إعطائى كأسًا رابعة عندما أظهرت له قليلا من الامتناع.

وكان فى تلك الليلة مدهشًا. كانت أقل لفظة أفوه بها تبعثه على أن يتمرغ على الأرض من شـدة الضحك. وقـد صرت عنده منذ تلك الليلة من أحب النـاس وأكرمهم. فصار لا يطيق البعد عنى، وكلما رآنـى مقبلا اسـتعد للضحك، فلا أكاد أنطق بحـرف حتى ينفجر مقهقهًا كما يعطس الإنسان إذا قربت من أنفه النشوق.

ولم يكفه هذا، بل أذاع عنى بين أصحابه جميعًا أننى نديم حلو الفكاهة شـهى الأحاديث، وأضاف إلى ذلك قوله إننى إذا شـربت ثلاثًا كنت أبرع الناس فى المنادمة. سامحه الله، لقد كلفتنى مقالته هذه مشقة كبيرة فيما بعد.

ومن أعجب العجب أن كل من سمع منه هذا لم ينتظر حتى يحكم لنفسـه، بل اعتقد صدقه بادئ ذى بدء. فصـرت بعد ذلك لا أنطق

بحـرف فى مكان حتى تتجاوب أصداء الضحك من كل أركانه. فلما رأيت هذا تعمدت أن أنطق بالكلام الذى لا يحتمل الفكاهة، بل لقد تعمـدت أن أنطق بالفاتـر البائخ من القول، ومع ذلك فما كنت أرى الضحـك يزداد إلا علوًّا الناس، قلما تجد فيهم من ينظر بعينيه بل يسيرون على هدى آذانهم.

ومهمـا يكـن من الأمـر فقد رضت نفسـى على تحمـل نزوات صاحبى، لأن حسـناته تغلب السيئات، وهذا حسبه من الإحسان. وكنـت أجد متعة فـى مصاحبته، فجلنا معًا فـى طرق جانبولاد، وزرنا حدائقها ومساجدها، وأسواقها المزدحمة وأحياءها الفقيرة وأحياءهـا العامـرة بالقصـور المنيفة، فوجدتها مثل سـائر بلاد الأرض، يسـكنها الناس مجتمعين لكى يمكر كل جار بجاره. هذه حقيقـة أبدية ليس فيها جديد فى جانبولاد. وكنت إذا سـرت فى صحبة «طوطاط» أسلم من العدوان، لأن الناس كانوا إذا رأوه فسحوا له الطريق، حتى فى أشـد الأسواق زحمة، مع أنى كنت إذا سرت وحدى لا أنجو من الدفع والخبـط، وكثيراً ما أصابتنى ضربات من العصى إذا مررت بقوم يتعاركون. وقد كنت ذات مرة أسـير وحدى فى طريق خالية، فسـمعت قومًا يتخاصمون ويتقاتلون، فاسـتغاث بى أحدهم، فذهبت لكى أعين على السـلام والوئام، وشغلت بسماع حجج الخصميـن ووزنها، وتأمل مواضع الحـق فيها، فلما فرقت بين المتخاصمين بالحق، وسـرت عنهم راضيًا، تلمست ردائى فلم

أجـده. فتظرت ورائى وحولى فلم أجد منه شـيئًا، كأن الأرض قد ابتلعته. ورجعت إلى مكان المعركة فلم أجد أحدًا هناك سوى شيخ يدب علـى عصاه. فلما رآنى أبحث سـألنى عن الخصـام فيم كان. فقلـت له إن القوم كانوا يتخاصمـون على ردائى فأخذوه. فنظر إلى الرجل فى عطف ثم مد يده إلى وسـألنى «حسنة»، فأعطيته ما كان معى وهو قليل، فنظر إلى ما أعطيته فاحصًا، ثم انصرف عنى وهو يغمغم شـاتمًا. هذا يحدث لى إذا سـرت وحـدى، ولكنى كنت إذا سـرت فى صحبة «طوطاط» رأيت على وجـوه الناس إجلالا وأدبًا، وقد سألته فى ذلك مرة فضحك وقال: «من أراد صلاح قوم أخافهم».

وفى هذا حق كثير بغير شـك، فقد خلق الله فى الإنسـان غرائز كثيرة، والخوف من أعجبها أسرارًا. فهو يتشكل فى شتى المظاهر كما يتصور الجنى فى صور الإنسان والحيوان. فالخوف يتخذ حينًا شـكل الحب، وقد يتخذ شـكل الإجلال أو الـولاء أو الأدب، وهو يحمـل كل هذه الأسـماء مع أنه ليس فى الحقيقة سـوى الخوف. ولكن هذا الخوف لا يطغى على الطباع إلا إذا انعدم الحب الصحيح، والخيـر كله لا يكون إلا فى الحـب، ولا تكون الكرامة ولا الصلاح ولا الإنسانية إلا فى المحبة.

وقـد أطلعنى صاحبى «طوطـاط» على حقيقة فـذة فى جانبولاد لم أشهد مثلها فى بلد من البلاد التى رأيتها. ذلك أنى رأيت بعض بيوتها تحمل فوقها أعلامًا مختلفة الأعداد، فبعضها يحمل عشرة، والبعـض يحمل عشـرين أو أكثر، والبعض لا يخفـق فوقه إلا علم

أو علمـان. وكانت البيوت التى لا تعلوها أعلام بيوتًا ضئيلة حقيرة المنظر. فوقع فى نفسى من ذلك شىء من العجب، فعهدى بالأعلام أن تكون زينة يقيمها الناس إذا أرادوا احتفالا بمرور السلاطين فى المدينة. وسـألت صاحبى عن سرها فقال فى دهشة: «ألم تر هذا من قبل؟» فقلت له: «لعلى رأيته ولكنى لم أتنبه إليه».

فكشف لى عن ذلك السر الخطير الذى تمتاز به جانبولاد. فقال: نحن هنا لا نتساهل فى أمر من الأمور. كل شىء هنا مقرر على نظام مرسوم. هكذا يحكم تيمور دائمًا.

فانتقـل بى خاطرى فجأة إلـى الغابة التـى رأيتها فى طريقى وتذكرت صرخة الفريسة المسكينة.

وقلت لصاحبى فى حماسة: لا شك فى أن النظام أساس العمران. فقـال وهو يرفع صدره ويميل برأسـه فى كبريـاء:- هنا طائفتان تحكمان جانبولاد: الأولى نحن. ثم أشـار إلى نفسـه إشارة زهو. فقلت فى هدوء: طبعًا.

فقـال: ولكل أمير منا علامة تميزه. فمنا صاحب الريشـة ومنا صاحب الريشتين ومنا صاحب الثلاث.

ثم توقف ليرى أثر كلامه على وجهى.

فقلت وأنا أنظر إلى ريشته: نعم صاحب الثلاث.

فقال مبادراً: ستكون لى بعد قليل ريشة أخرى. لا شك أن تيمور يزيدنى ريشـة إذا عاد من حربه مع بايزيد. وسيعود بعد قليل. ألم تسمع منذ أيام أنه أسره ووضعه فى قفص من حديد؟

فخرجت منى صيحة: قفص من الحديد؟

فقال باسمًا: نعم. وسيأتى به إلى هنا لنراه فى قفصه، ثم يذهب به بعد ذلك إلى سمرقند لكى يجعله فى طليعة موكبه العظيم.

ثم نفخ صدره وعبس.

فقلت بغير وعى: بايزيد فى الموكب؟

فصاح بى غاضبًا: نعم إنها آية لمجد تيمور.

فلم أشأ أن أجادله فى هذا الأمر فقلت: نعم.

فقال وكأنه نسى ما كان يحدثنى فيه: سينظر الناس إلى عاقبة من يقاوم تيمور. هو الأسد الذى لا يقاوم والنسر الذى لا يسامى. وليس لأعدائه إلا القهر والفناء.

فهززت رأسى وفى حلقى غصة ولم أملك جوابًا، وضاق صدرى بأنفاسى، وعادت إلىَّ صورة الغابة.

فقال صاحبى مستمرًّا: فإذا عاد تيمور إلى هنا رأينا عدوه فى القفص وشفينا النفوس من كبريائه المحطمة.

فقلت له: إنك تكرهه. هل رأيته؟

فرفع حاجبيه وقال: ولم أراه؟

فأردت أن أبعد به عن هذا الحديث فقلت له:

– وإذا عاد تيمور وضع لك هنا ريشة أخرى؟

وأشرت إلى قلنسوته. فتذكر ما كان فيه من الحديث وقال: نعم. ريشة أخرى هنا.

فقلت مشجعًا: وثالثة ورابعة.

فضحك حتى تراجع إلى الوراء، وقال: «إنما هى ثلاث ريشات ليس بعدها إلا الأذناب». فصحت ضاحكًا: الأذناب؟

فقال ضاحكًا كذلك: نعم ذنب واحد أو اثنان أو ثلاثة. هؤلاء هم أعلى الفرسان. ليس فوقهم سوى تيمور.

فقلت بغير تفكير: إذاً فالأذناب فى القمة.

فقال موافقًا: ثلاثة أذناب ليس بعدها إلا تيمور.

فقلت: وماذا يحمل تيمور العظيم. حدوة فرس؟ سيف؟ سن فيل

فقال ضاحكًا من جهلى: لا، بل هى عمامة كبيرة.

ثم نظر إلى عمامتى وقال: أكبر من هذه.

فشعرت بشىء من الكبرياء وضحكت قائلا: ثوب آخر يجعلها كعمامة تيمور.

فضحك صاحبى كعادته إذا سمع كلماتى، وضرب بيده على كتفى وكأنه نسى كل الحديث الذى كان بيننا فقال: سيكون موكبه عظيمًا بغير شك. وسيعطينى بعد ذلك ريشة أخرى.

فخشيت أن يعود إلى وصف سيده العظيم، فقلت له مذكراً: هؤلاء هم أصحاب الريش والأذناب. هؤلاء هم الطائفة الأولى.

فقال وقد تذكر: نعم وأما الطائفة الثانية فهم أصحاب القدور.

فصحت ضاحكًا: قدور فوق الرءوس؟ مساكين!

فعـاد إلـى الضحك وقـال: لا لا! بل هى قدور مـلأى بالذهب الأصفر الصافى. كلما جمع أحدهم قدرًا ختمها ووضع على داره علمًا جديداً يدل على أن قدوره الذهبية قد زادت واحدة.

فهززت رأسى وقلت كالحلم: قدور ملأى بالذهب!

وأطرقت أفكر فـى هذا النظام العجيب. فمـا أغلى هذه الأعلام التى لا يرفـع أحدها إلا إذا كان تحته قدر من الذهب. وذهبت بى الأفكار مذاهب شتى فى تصو. حال جانبولاد، حتى هزنى صاحبى وقـال لى: «انظر إلى هذا المنزل» وأشـار إلى بيت على يسـارى. فوجهـت نظرى إليـه فاترًا فرأيتـه قصرًا عظيمًا تلمـع جدرانه، وتبتسـم بساتينه. ورأيت فوقه خمسـين علمًا تحفق فى الهواء فى مرح وكبريـاء. وقـال «طوطاط». «هذا بيت صاحب السـيف. كلمة واحدة منه تكفى لأن تطيح الرأس عن الجسـد فهو صاحب الأعلام الخمسين. قاضى جانبولاد».

فاعترتنى قشعريرة من سماع هذا القول، وجعلت أفكر فى أمرى وأمر الناس، وموضعى فى هذا البلد الذى تكفى فيه كلمة من صاحب الأعلام الخمسين لأن تطيح الرءوس عن الأجساد ولكنى ما لبثت أن هدأت نفسـى فإنـى جئت إلى جانبولاد لاجئًـا، ولا ينبغى لى أن أتكلـم ولا أن أناقش، فـإذا لم تعجبنى هذه الحـال فباب المدينة مفتوح أسـتطيع أن أخرج منه إلى حيث شـئت. ولم يكن أولى بى من أن أضع لسـانى بين فكى وأطبق عليه شفتى. وعند ذلك تبين لى

ما يعترى الغريب من الذلة. ولو كنت فى ماهوش لما رضيت لنفسى إهدار الكرامة، فإنى كنت هناك أتكلم وأنتقد وأسخر أحيانًا، ولم أسمح لأحد أن يكم فمى ولاحت لى الحياة فى ماهوش عند ذلك أحب حياة على الأرض، واشتد حنينى إليها وأطرقت حزينًا أستعيد ذكراها.

ولا حظ صاحبى وجومى وإطراقى فقال لى: أراك تعبت!

وكنت قد تعبت حقًا فقلت له: صدقت.

فأشار إلى مكان مزدحم فى جانب السوق وقال: هلم نسترح قليلا.

فترددت قليلا، فما كان ينبغى لى أن أجلس على قارعة الطريق فإن هذا مذهب للمروءة.

ولكن صاحبى مضى فى وجهته حتى جلس، وأخذ يصفق بيديه فجلست معه ونظرت حولى أدير عينى فى الجلوس، فلم أر فيهم شيئًا يستحق التأمل. كانوا جميعًا جالسين بعضهم مسترخ فى صمت وبعضهم يتخاصم فى صخب، فملت على «طوطاط» وقلت له:

– أليس فى المدينة من يرى فى هذا النظام رأيًا؟

فقال فى دهشة: ماذا تعنى؟

فقلت: أعنى أن جانبولاد مدينة عظيمة، وفيها خلق كثير لا أعلام لهم ولا ريش. فما حظ هؤلاء منها؟

فقال فى بساطة: من تقصد؟ هؤلاء العامة؟

فقلت منكسراً: نعم، من لا ريش لهم ولا أذناب مثلى.

فقال ضاحكًا: هؤلاء قد عرفوا كيف يصمتون.

فطعنتى كلمته طعنة شـديدة. وخيل إلى أن عذاب الحجيم نفسه أهـون على من الإقامة فى بلد ليس لى فيـه إلا أن أصمت. وجاء عند ذلك خادم المكان يحمل القهوة. وكنت أحبها فأقبلت عليها أرشفها، وشـغل عنى صاحبى بمسـاومة بعض الباعة الذين جـاءوا يعرضون سلعهم يحملونها فى أيديهم أو فوق رءوسهم، وكانت مساوماته أشبه الأشياء بالنضال، حتى لم يخل بعضها من الدفع باليد والسباب. وكان الباعة رجالا يسـتطيع أحدهم إذا شاء أن يدير ساقية بزنده، ولكنهم كانوا لا يحملون من السـلع إلا يسـيرًا لا يزيد ثمنه على دريهمات. ففهمت عند ذلك السر الخفى. فهمت كيف يرضى العامة فى جانبولاد بـأن يقيموا فيها خاضعين، ويضعوا ألسـنتهم داخل أفواههم. فليس بهم من حاجة إلى الكلام لأنهم فى شغل عن ذلك بهمِّ اقتناص الرزق الضئيـل. وجمـع صاحبى كومة كبيرة مما اشـتراه من أصناف كثيرة مختلفة الألوان ولم يبق له إلا أن يشترى ليمونًا. فتنبهت على صوته وهو يشاحن البائع ليأخذ منه ليمونة عاشرة، فلما سخا له البائع بها أعطاه دانقًا ثم التفت إلىَّ وقال: أف لهؤلاء الباعة ما أشد لجاجتهم!

ولما رآنى مشغولا عنه هزنى بيده وقال: أراك غارقًا فى تفكيرك.

ثـم أخذ يجمع السـلع ويضعها فـى منديل كبير ولكـن المنديل لم يتسع لها، فقلت له باسمًا: هذا حمل كبير.

فقـال وهو يغمز بعينه: عنـدى الليلة بعض أصحابى. وحبذا لو كنت معنا.

فتذكـرت الليلة التى عربد فيها علىَّ وفهمت من غمزة عينه أنه يشـير إلى الكؤوس الثلاث التى ظن أننى شربتها، ولم أجد جوابًا أرد به فاستمر قائلا:

– هم جميعًا من أصحابى المقربين ويسرهم وجودك بينهم. لقد سـمعوا عنك وهـم يحبون أن يتمتعوا بحديثـك. وعلى فكرة – هم جميعًا من أصحاب الأعلام وليس أولى بك من مصاحبتهم.

ومال علىَّ هامسًا: لا تبعد عن مجالسة أصحاب الأعلام إذا شئت أن تكون لك أعلام فى جانبولاد.

فأثارنـى قوله وقلت: «ما هذه الأعلام التى جعلت جانبولاد لها كل هذه القيمة؟ وما هذه القدور المختومة التى فى باطنها الذهب؟ إنها لا تزيد على قدور مملوءة بالرمل أو الطين ما دامت مقفلة».

فضحك «طوطاط» حتى كاد يستلقى على ظهره ثم قال:

– سيتغير رأيك إذا أصبحت من أصحابها.

فقلت فى عناد: وما الذى يشـق على فى ملء عشرات من القدور بالحصـى. إن قـدرًا من الخـزف لا تزيد على الأخـرى إذا كانت مختومة.

فعاد إلى ضحكه وقال: لن تستطيع.

فقلت: وما الذى يمنعنى؟

فقال وهو لا يزال يجمع بضاعته: الذى يمنع من السرقة.

فقلت: ولكن السرقة جريمة.

وكان قد قام ونادى رجلا يسير أمامه. فأمره أن يحمل له بضاعته، فجمعها الرجل فى حجر ثوبه، ونظر صاحبى إلىَّ فى عجلة وقال: «ستكون وليمة مرحة، وأرجو أن تؤنسنا بصحبتك».

وكأنه نسى كل الحديث الذى كان بيننا فسار وسرت معه، وجعل يحدثنى عن صنوف الطعام التى يعدها لوليمته، حتى بلغنا المنزل فاستأذن وسار إلى داره وهو يغنى، والحمال يزحف من ورائه بحمله الثقيل.

■■■

obeikandl.com

١٤

قضيت ليلتى فى أحلام متعاقبة عشت فيها مع الأحبة فى ماهوش.

أى وطنى الحبيب الذى قســا علىّ! إنك لا تزال فى قلبى مع كل قسوتك، وكلما مرت بى الأيام عرفت ما كنت أجهل من فضلك. لقد هاجرت من وطنى لأننى لم أجد فيه مكانًا يرضينى، ولأننى لم أجد فيه رزقًا يغنينى. ولكنى علمت بعد أن وجدت الرزق فى جانبولاد أن وطنى كان يمنحنى ما هو أثمن من كل مال وأطيب من كل رزق: الكرامــة والحرية، وهما لا يقومان بمادة هذه الحياة كلها، فواحر قلبــاه! ورأيت فى حلمى كل الأحبة: رأيــت ولدى عجيبًا وابنتى جميلة، ورأيت صديقى أبا النور. ثم رأيت مع كل هؤلاء علية. علية ابنــة علاء الدين التــى ملأت قلبى حبًّا ونــوراً. وحدثتها وبثثتها لوعــة الفراق وناجيتها بأشــجانى الثائرة وعاتبتهــا عتابًا طويلا. عاتبتها فــى حلمى كأنها هى التى هجرتــى وخلفتى وحيداً. فلما قمــت فى الصبــاح وجدت قلبى ممتلئًا بها. لقــد كانت فى ماهوش تعيــش فى قصرها وحوله الحراس والحجاب، لم أســتطع يومًا أن أدنو من أســواره. ولكنها مع ذلك كانت دائمًــا قريبة منى. قريبة لا يفــرق بينى وبينها حجاب لأنها كانت فــى قلبى. كانت صورة وكانت خيالا. وما حاجتى إلى غير صورتها وخيالها؟ إننى لم أبال

الجسم الذى يذوى ويمرض ويضعف ويزول؛ فقد كانت روحى التى تتعلق بها وتجد السعادة فى تأمل كمالها.

قمت فى الصباح كعادتى فذهبت إلى المعسكر وصليت بالجنود، ثم خرجت أسير فى الطرق وأنا أفكر فى مكانى من هذا الوطن الجديد. هذا البلد الذى لا كرامة فيه إلا لأصحاب الأعلام والريش والذى تحكمه القدور الملأى بالمعدن اللامع. ولم يكن بى من حقد على أحد؛ فلست أنفس على الناس أن يفوزوا بالذهب كما يشاءون، والذهب عندى لا يزيد على سائر مادة هذا الطين. ولو كنت يومًا راقداً فى ضوء الشمس أتأمل فى خلق الكون وأنا أنظر إلى السماء الصافية وأهيم مع أحلامى فى الملكوت، ثم رأيت خمسين قدرًا ملأى بالذهب تهوى فى الظل على بضع خطوات منى لما تحركت من مرقدى لأذهب إليها. وقد كنت منذ عقلت لا أطمع من هذه الدنيا فى أكثر من الرزق الذى يقيم الحياة، لأنى أخذت نفسى بما علمت، والذهب فى آخر الأمر لن يصاحب الناس إلى القبور. سيخلف الناس الذهب كما يخلفون كل شىء وراءهم بعد الحياة، ولم يكن الذهب سبيل السعادة فى دار من الدارين. فليس بى من حقد أن يسعى إليه الناس ويستأثروا به، وحسبى من الدنيا ما أصيب من رزقى الضئيل. ولكل الذهب شىء والكرامة شىء آخر، ولا علاقة بين هذه وذاك. فالكرامة حق وهبه الله للناس منذ خلقهم ناسًا. فإذا كانت جانبولاد تهب لى القوت لكى تسلبنى هبة الله الثمينة فلا مقام لى فيها.

ولكن... أواه من شعور العاجز بعجزه! فكرت فى أين أهاجر إذا تركت جانبولاد. هذا ما شغل قلبى منذ تلك الليلة فى إصباحى وإمسائى وفى نومى وصحوى، حتى ضاق صدرى وكاد يضطرب عقلى. وأخيراً بدا لى رأى وجدت فيه من ضيقى مخرجًا. عزمت على أن أعيش فى عالم أسعى فيه إلى الخير، وأبذل فيه كل ما أستطيع، وأهب فيه للناس من قلبى ومن عطفى، فلن أحس فى مثل هذا العالم ذلا ولن أبالى من أمور الناس همًّا. فعزمت على أن أقف حياتى كلها على خدمة المساكين فى جانبولاد، وما أكثر مساكين جانبولاد، هؤلاء الحفاة الذين ليس لهم من أمر وطنهم شىء إلا أن يصيبوا الكفاف من عيش زرى على ما يقومون به من عمل قاطع. استقر رأيى على أن أكون خادمًا لهؤلاء أعلمهم وأرفه عنهم وأواسيهم، ورسمت لنفسى خطة قمت على تحقيقها بغير تردد أو تسويف.

فكنت إذا فرغت من صلاتى وفرغ الجنود من تقبيل يدى عقدت لهم مجلسًا قبل أن ينصرفوا، أحاول فيه أن أفتح صدورهم للرحمة، وأن أبصرهم بحياة الإنسان. وكثيراً ما كنت أرى فى أعينهم الدمع كلما لمست جانبًا رقيقًا من قلوبهم، فكان هذا يملأ قلبى سروراً، وكنت أحمد الله الذى يفجر من الصخر ينابيع الماء الزلال، والخير لا بد أن ينتصر يومًا، والدمع الذى يثور فى العين مرة لا يضيع سدى.

فإذا ما انتهى درس الجنود نزلت إلى المدينة أقلب فيها نظرى، وكنت فى كل يوم أجـد فرصة جديدة أتخذ منها مطية إلى الخير. مسـاكين أهل جانبولاد، كنت أمد يدى إليهم فتغنيهم وإن لم يكن فيها شـىء من الذهب. كم من كلمـة طيبة يجود بها القلب فتغذى الـروح لا يقاس بها عطاء من فضـلات الغنى. وكنت كل يوم أذهب إلى المسـجد الأعظم وأتخذ فيه مجلسًـا إلى جوار عمود، فيجتمع حولى من المساكين من يتعطش إلى الكلمة الطيبة. وفى هؤلاء كنت أجد السـلام والكرامة. كنت أحس أننـى أصب عليهم مما فى قلبى وأضيفهـم فى حنايا صدرى. وما كان أعظم ما نلت من السـعادة فى أعقـاب هذه الدورس! كنت أحس أن النور يجلو روحى، وأن الحق يحل فى كيانى فيملؤه قدسـية، فإذا بـى لا أرى فى الكون كله إلا تسبيحًا وترتيلا.

هناك بين المساكين كنت أرى الزهر يانعًا، وأشم العطر فياحًا، وأسمع من أنغام السموات ما لا يدركه السمع، وأفهم من وحى العلا ما لا يبلغه العقل. كان روحى يهيم ويكشـف الغطاء عن الأسرار، ويتلبـس بحقائق الأزل، فلا اللفـظ لفظ ولا الحس حس، بل الكون أنـا وأنا الكون. هناك بين المسـاكين سـموت حتى أشـرفت على العالم الصغيـر، وعلى من فيه من الدَّبَى المغـرور: تيمور وجنده من أصحـاب الريش وأصحـاب الأذناب، وجانبـولاد وعليتها من ذوى القدور والأعلام. وكنت أشـير بأصبعى إلى الأنوار التى كانت

تتلألأ فى كل مـكان أمام بصيرتى، فيتطلع المسـاكين ويصدقون، لأنهم كانوا يؤمنون. علمت المسـاكين أن فى الحياة ما هو أثمن من الذهب، وأسـمى من السـلطان ومن القوة، وأن فيها من اللذة ما هو فوق متعة الأجسام، علمتهم أنهم يستطيعون الاستغناء عن كل قوة وعن كل متعة إذا هم آمنوا بما هو أسمى وأعلى، فى حين أن الدبى المغرور مـن أمثال تيمور يقضى حياته أسـيرًا فى قيود من الطين العفن لا يستطيع أن ينتزع نفسه منها.

وكانـت الأوقات التى قضيتها مع تلاميذى فى هذه الحلقة أحب العبادات إلىّ. وجدت فيها قرة العين، وفزت فيها بمجمع اللذات. فـإذا ما انصرفت بعد ذلك إلى دارى أقبلت على أوراقى وكتبى أقرأ وأكتـب وجعلت ما كتبته وقفًا على من يطلـب العلم قربانًا إلى الله سبحانه الذى علّم بالقلم.

ولكنى لم ألبث أن صدمت صدمة بددت آمالى.

كنت يومًا فى مجلسـى إلى جوار السارية أناجى خفى الأسرار فإذا بى أحس شخصًا يقف عند رأسى، ويضع يده على كتفى. فالتفت نحوه لفتة قصيرة لعله أعمى ضل فعثر بى، أو فقيرًا جاء يقصدنى، فـإذا بى أرى فتى أسـمر فى حمرة، قد أمال قلنسـوته إلى يمين، وأبدى من تحتها طرة تلمع فوق الجبين. وقد أطال عارضيه. وزجج حاجبيه، ولف حول وسـطه منطقة حمراء من الحرير، فوق ثوب أصفر مـن ديباج، وهو قصير بدين، يـدرج كالدحروجة، ويتمايل تياهًا وينظر متحديًا.

فقلت له لأصرفه عنى: «هداك الله إلى سبيلك».

فقال وقد كشر عن نابه: «أما تعرفنى؟».

فتظـرت إليه فاحصًـا، وصعدت فيه بصـرى كرّتين، فلم أتبين مـن يكون ولـم يكن لى عهد برؤيـة مثله، فضاق عنـد ذلك صدره وصـاح بى: «أنا صاحب الباب وحاجـب الحجاب! قم إلى القاضى ولا تبطئ عليه».

فوقـع قوله منـى موقعًا شـديدًا. فالقاضى سـيد مـن أصحاب الخمسين، وقد عرفت نفسى عزوفًا عن مجالس العظماء، فاستعذت بالله من الغرور، وظننت أن سـيده قد سـمع بى، وعرف ما أقدمه للعلم فى سبيل الله، فأحب أن يظهر لى تجملا، أو يبعث فى طلبى تقريبًـا وتلطفًا. وكنت لا أحـب أن أفتح قلبى للغرور فإنما الأعمال لله وحـده، وما كنت لأبتغى بهـا عند الناس ريـاء. وعزمت على أن أجعل بينى وبين السـلطان سـدًّا، وهممت أن أرد الحاجب ردًّا جميلا، وأبعث معه إلى السـيد العظيـم دعوة خير أرجو أن تكتب له فى صحيفته.

ولكن ما كان أشـد عجبى عندما نادانى الفتى متجهمًا، وأمرنى فى جفاء أن أسرع إلى المجلس فإنَّ لى فيه شأنًا.

ولم أفهم أى شـأن يكون لى فى مجالـس القضاء، وليس لى فى جانبولاد مـا أنافس الناس فيه. فلم تكن لى تجارة ولا زراعة، بل هى صلاتى ودرسـى، وكتابى وورقـى، وإن كان لى رزق فيها فمما قسـمه الله لى من عطاء لسـت فيه شريكًا لشـريك أو عميلا لعميل.

فقلت للحاجب فى هدوء: «هداك الله ياولدى. لقد أخطأت فما أنا بمن يطلبه السيد العظيم» ثم هممت أن أعود إلى درسى، ولكنه نظ إلى مغضبًا ثم صاح بى حانقًا: «أيها الرجل قم إلى القاضى فإنه ينتظرك، لينفذ فيك ما يجب عليه أن ينفذه من حكم العدل». فنظرت إليه وإلى حلقة الدرس، ونظر التلاميذ إليه ثم إلىَّ، وطال النظر من بعض إلى بعض، حتى نفد صبر الحاجب وكان قويًّا فتيًّا يلمع رونق الشباب فى وجنتيه، فتقدم نحوى عامدًا كأنه أراد أن يجرنى من الدرس قسرًا. فلم أجد بدًّا من القيام طائعًا، فهؤلاء أتباع السلطان لا يعرفون تجملا ولا ترفقًا. ولما رأيت من تلاميذى بوادر الغضب أشرت إليهم بالصبر والأناة ونظرت إليهم معاتبًا، فما ينبغى لمن كان مثلى إلا أن يطيع ولى الأمر إذا دعاه.

وسرت إلى مجلس القاضى، وأنا أدير فى ذهنى كل حوادث الأيام والشهور، لعلى أذكر لنفسى سببًا مما يجر إلى ساحة القضاء فلم أجد شيئًا أعرفه، وحسبت الأمر كله خطأ لا يلبث أن يزول. ولما دخلت إلى المجلس رأيت السيد فى صدر المكان وله فم ضب وعينا أرنب، يخيِّم عليه ظل الهيبة، وترنق فى عينه الصرامة. ورأيت قلنسوته العالية من تحتها لحية تبلغ القبضتين. ورأيت ثيابه من الدمقس، وتحته طنفسة من الإبريسم الحر، وقد رفع فوق رأسه الدرفس، ووقف الأتباع من حوله خشوعًا، يسلون السيوف ويبسطون أمامهم الأنطاع. فوقفت حينًا أنظر فى ارتياع، وأترقب حركة فمه المدبب،

الذى يضم بين شفتيه لسانًا فيه مصير الناس من سعد وشقاء، وأتأمل عينيه الخاويتين، ومنهما يطل القضاء. وتمثل لى ما كان فى مجلسه ذاك على مر الأيام، من سجن وتعزير، وغرامة وتشهير، وقلت فى نفسى أعوذ بالله من عثرات المقادير، وتقدمت نحوه باسمًا، وسلمت عليه محتفيًا خاضعًا، ثم أردت أن أشكو إليه حاجبه كيف قطع درسى وروع تلاميذى، فإذا به ينظر إلىَّ فى جمود، ويرفع يمينه فى جفاء، ثم قال بصوته النحاسى: مكانك أيها الرجل!

وكأن الأرض قد مادت بى عند ذلك، أو كأن السماء قد مارت وتداعت، وعقل لسانى عن النطق ووقفت أنظر إليه وعيناى تطرفان، وأذناى تطنان. ولا حاجة بى إلى ذكر ما قال لى كله فقد كان مجمله أننى جئت إليه متهمًا بأننى شربت الخمر وقارفت عظيم الإثم، ونادمت وفاكهت، وأعنت على المنكرات، وأنا رجل أدخل المساجد وأؤم فى الصلوات. وقد شهد علىَّ بذلك من كنت أنادمه، وسمعه منه الشهود العدول، ورواه عنهم الشهود العدول. ثم أراد حرسه الله أن يتحرى العدالة وأن يبالغ فى التدليل، حتى لا يزل فى حكمة، فقال إنه قد بعث فى أثرى العيون وشهدوا أنهم رأونى أدخل إلى بيت صاحبى الفارس فى الليل، وأخرج منه بعد حين فى هئية من لا شك فى امتلائه بالشراب، إذ كنت أسير مطرقًا، وأجرر رجلى خائراً، وأدخل إلى دارى، لا ألتفت إلى ورائى ولا أرفع ذيول ردائى.

فذكـرت عند ذلك مـا كان. جازى الله «طوطـاط» فكم من مصاب ينزل بالمرء من وراء عبث، وكم من دواهٍ جرها على الناس حديث إفك. منذ تلك الليلة التى نادمت فيها«طوطاط» لم يبق فى جانبولاد مجلس شـراب لا يذكر فيه اسمى، ولم يبق جمع طرب لا يتحدث بفكاهتى وظرفى. فكنت أوصف بحسن المنادمة وطيب المحادثة، والأدب عنـد الشـراب والصبر علـى عربدة الصحـاب، على حين كنت فى المسـجد أحلق مع تلاميذى فى السـماء، وأتقرب إلى الله بفعل الخيرات وخدمـة الطلاب، وأعكف على التأليف والتصنيف والعبادة والتسبيح.

وتقدم القاضى إلىّ بأن أدفع التهمة عن نفسى إذا استطعت، فإن العدالة تناديه أن يكشف عن جرمى، وأن يحمى الناس من ريائى، ولـن يزال بى حتى أتوب بيـن يديه، بعد أن يوقـع على العقوبة التى أسـتحقها، ثم يمنعنى بعد ذلك من مخالطة الطلاب، وتلويث المسـاجد التى لا ينبغـى أن يدخلها إلا المطهـرون. فلم أملك من القول إلا سبحان الله ولا حول ولا قوة إلا بالله.

ولم أستطع غير التسبيح والحوقلة ردًّا ولا دفعًا. ووقفت مبهوتًا كأن صخرة قد هوت على رأسـى فشـدخته، ونظـر القاضى إلىَّ من تحـت جفنيه كأنه أراد أن يخرق بنظراته صدرى، لينظر ما أخفى وراء جدرانـه من دليل على جرمى. ومـن العجيب أننى بعد حين أحسست فى نفسى تبدلا، فزالت عنى الحيرة وامتلأ قلبى ضحكا،

حتى كـدت أقهقه فى وجه السـيد العظيم، وأنقـض على عثنونه الطويل فأهزه وأجبذه ولكن نظرته كانت قاسية فهرب منى الضحك فى لحظة، ونظرت إلى الشـرط والأتباع وهـم يتربصون بى أمره، وينتظرون على إشـارته، وبعد لأى نطقـت فقلت: لقد فجأنى هذا الأمر يا سـيدى، فيسـر لى من الوقت ما أقدر فيه على جمع نفسى والإدلاء بحجتى. وكان حرسـه الله يعرف أصول القضاء. فلم تأخذه فى عدالته الكبرياء، ولم يسـرع إلى العقوبة قبل أن يبلغ العذر من الإعذار، وأنا بعد فى يديه إن لم يكن اليوم فغدًا.

وذهبت إلى الدار أحدث نفسـى حائراً بائسًا، لا أرى أمامى إلا همًّا وظلامًا. وضاقت جانبولاد فى وجهى، حتى فكرت فى الهرب منها متسـللا. وهاجمتنى المخاوف تعذبنى، فلم أجد منها خلاصًا إلا بـأن أقـوم إلى وضوئى، لعلـى إذا اتجهت إلـى صاحب الكون وجدت عنده السلام.

■■■

١٥

أتى الليل هاجمًا علىَّ بظلامه فزادنى همًّا على همى، وشملتنى رهبة لا أستطيع أن أصفها. فقمت إلى صلاة المغرب، وما كدت أقيمها حتى سمعت على الباب طرقًا، فزاد اضطرابى خوف أن يكون ذلك نذيرًا بمصاب جديد، فقد خيل إلىَّ أنه لم يبق لى فى هذا العالم إلا سلسلة من الكوارث تتعاقب حلقاتها علىَّ مع الساعات. وفتحت الباب فى حذر ثم نظرت.

«أهو أنت أيها الحبيب؟». خرجت منى هذه الصيحة وأحسست أن شعاعًا من النور أضاء أمامى، عندما رأيت صاحبى وتلميذى كمال الدين.

جاء صديقى إلى دارى من قبل فلم يجدنى، وذهب إلى مجلس القاضى فدفع عنه دفعًا قبيحًا، فعاد إلى دارى بعد أن قضى حينًا يهيم فى طرق المدينة مهمومًا من أجلى. حمداً لله فإن المصائب تهون وإن جلَّت إذا وقف إلى جانب المرء صديق وفى. لقد اطمأننت عند ذلك على أنى أجد إلى جانبى رجلا يصدقنى إذا تحدثت، ويواسينى إذا تعذبت، ويعيننى بمؤانسته إذا تحيرت. ولما دخلنا توضأ صاحبى وصلينا معًا، ثم جلسنا نتحدث وأفضيت إليه بكل قصتى، وشكوت إليه عثرتى. ولله هو من صديق! لم أجده يتزعزع

أو يشـك، بل كان مصدقًا واثقًـا، وجعل يذكرنى بالله وما هو جدير به من نصرتى وجلاء غمتى، حتى أخجلنى من نفسـى. فما كان لى أن أبتئـس أو أخشـى لأن الله عالم بأمرى وهو معـى ولن يخذلنى. وأشار علىَّ أن نذهب إلى القاضى لعلنا نحدثه فى خلوة، فإنه إنسان وإن كان من أصحاب الخمسـين، ولابد لحجة البرىء أن تظهر وإن سـاءت الظنون. فقمنا معًا وكان وقت العشاء قد اقترب، فقلنا ندرك الشـيخ فنصلى معـه جماعة، ونتحرم إليه فى كنـف الصلاة. فلما بلغنا القصر وجدنا عنده حرسًـا كثيراً، من شرط وحجاب، وأعوان وغلمان، فلما رأونا نقصد الباب نظروا نحونا شزرًا، وأقبل بعضهم على بعض يتهامسـون. فتجرأ صاحبى وتقدم فسـأل عن الشـيخ، وطلب أن يسـمحوا لنا أن نراه، وتعلل بالعلل فقال: «إن السيد يهم السـاعة بالصلاة، ونحن نحب ألا تفوتنا بركة الائتمام به». فضحك أحد الغلمـان ثم نظر إلى رفاقه فتضاحكوا، وعاد فنظر إلينا واحدًا بعد الآخر من أعلى الرأس إلى أخمص القدم، ثم مد يده إلى جبتى ووضـع يده فى خروقها، وقال وهو يضحك: «خذوا زينتكم عند كل مسجد» فجذبت جبتى منه فى شىء من الغضب وكدت أقذفه بكلمة حانقة لولا أن تدخل كمال الدين متوسـلا يقول: «إن الشـيخ حرسه الله لا يضـن على مثلنـا أن نصلى معه. فنحن فقيران نريد أن نتملى ببركته». فقام أحد الحجاب ودفعه فى غلظة وقال له معنفًا: «اذهب إلى المسجد إن شئت الصلاة، وأما إذا أردت الاحتيال على الصدقة

فإننا لا نخدع عن مثلكما». فملأنى الغيظ وجرحت عزتى، وكدت أثور لولا أن جذبنى كمال الدين وهمس فى أذنى: «ليس لنا من حيلة إلا الذهاب».

وسرنا معًا مطرقين حتى بلغنا المنزل فصلينا، ثم جلسنا نقرأ الأوراد، وما هو إلا أن انصرفت إلى الله بقلبى حتى حل فيه السلام ونسيت كل ما كان.

وكأن وحيًا قد هبط علىَّ فألقى فى روعى أن أذهب وحدى إلى القاضى، وأحسست فى نفسى يقينًا أننى إذا ذهبت إليه لم يستطع أحد أن يقف فى سبيلى. فقمت واستأذنت صديقى، ورجوته أن يصبر حتى أعود إليه، وسرت قدمًا برأس مرفوع وقلب يجيش ونفس تتحفز حتى بلغت قصر القاضى. وما كان أشد عجبى إذ وجدت الباب خاليًا ليس عليه حراس ولا غلمان. فدفعت المصراع فانفتح، وأدخلت رأسى من فرجة الباب فلم أجد أحدًا وراءه، فدخلت ورددت المصراع، وكان الظلام كثيفًا فسرت أتحسس مواضع خطواتى، حتى اجتزت مدخل الفناء، فوجدت بابًا آخر فدفعته فانفتح وظهر من ورائه بستان من فاكهة ونخل وريحان، وكانت الدار تشرف عليه محيطة به، وعلى نوافذها مشربيات بديعة تبدو أمام العين مبهمة فى الضوء الخافت المنبعث منها. وسرت فى غير تردد وأنا أتعجب أن يكون القصر خاليًا صامتًا. فأين حراسه؟ ولم أخفيت هكذا أنواره؟ إنها تبص بصيصًا من وراء

السجف تنم عن قناديل مئات تزهر من داخل الأبهاء، وصعدت فى السلم على حذر حتى انتهيت إلى مدخل البهو، فما هذه الأصوات المختلفة؟ كانت أصوات الضحك والغناء تتجاوب ويحملها الهواء فى أمواج متعاقبة، فتخف حينًا ثم تعلو حينًا، كأنها آتية من عالم بعيد. وزاد بى العجب وقويت فى نفسى رغبة الاطلاع، وازدادت القوة التى فى صدرى دفعًا ففتحت باب البهو، فإذا قاعة يضل فيها البصر، طولها ثلاثون ذراعًا وعرضها عشرون، فرشت بأبدع الأثاث وغطيت نوافذها بخالص الحرير، وأحسست تحت قدمى طنفسة لينة، تغوص بى كلما خطوت، ورأيت فى صدر القاعة بابًا يأتلق النور من ورائه، وتفوح العطور من قبله. فكانت رائحة المسك تتضوع منه مختلطة بأبخرة العود، وكانت الأصوات الناعمة يمازجها صوت أجش له رنين النحاس. وسمعت رجلا يضحك ضحكة ناعسة بين كركرة صداحة، كأنها من سجع الطير. وعادت الموسيقى فكانت سحرًا وفتنة، فلم أستطع إلا أن أقف مكانى، وقد غلبنى طربها، فقد كنت منذ صباى مولعًا بالغناء. وكدت أنسى أننى دخلت القصر خلسة، وأنه لا ينبغى لى أن أطيل الوقوف، ثم أفقت بعد حين وعادت إلى نفسى، فسرت إلى الأمام خطوات وأنا أتعجب. فما للقاضى والغناء؟ وما هذه الأصوات الناعمة التى تسحر الهواء؟ وفكرت فى العودة خاشيًا من عاقبة هذه الجرأة. ولكن شيئًا فى قلبى دفعنى فلم أستطع خلافه، ثم رأيت باب القاعة يفتح من

أقصى أركانها، فخفت أن يرانى أحد فأسرعت إلى أقرب ستار فتكمشت وراءه، وجعلت أطل برأسى من مخبئى. فرأيت غلمانًا وجوارى يحملون صحافًا وكؤوسًا، ثم اقتربت من موضعى فتاة مثل فلقة القمر، تخطر فى أثواب من الحرير الأحمر والأصفر، فلم أتمالك أن نظرت إليها نظرة، ثم أغضيت وقلت: سبحان من خلقها وسواها. وكتمت أنفاسى حتى بعدت عنى، فاختلست إليها نظرة أخرى فرأيتها تحمل ثيابًا وتضعها على أريكة، ثم رأيتها تعود خفيفة رشيقة، كأنها مهاة فى الصحراء، أو ريم شارد من كناسه. ولما بعدت عنى أطللت برأسى وراءها حتى فتحت الباب، ودخلت منه، فنظرت من الفتحة فإذا فى صدر الحجرة قلنسوة حمراء، ومن تحتها السيد القاضى حرسه الله فى هالة رائعة المنظر، من مؤنسات أوانس، وندامى صباح. ورأيت أمامه طاسات من المدام ونقولا وفاكهة وأزهارًا، وقماقم من عطور، وأحقاقًا من غالية، فكدت لا أصدق عينى، وثارت الوساوس فى نفسى، وتساءلت أفى يقظة أنا أم فى منام. وجعلت أقرص كفى وأضرب بيدى على وجهى، حتى تحققت أننى فى صحوة، وأننى أرى السيد القاضى بعينه وذقنه وفصه ونصه. فقلت أهذا هو الذى يحاكمنى، ويقتص للعدالة منى؟ وامتلأت غمًّا وهمًّا، فقد علمت أن أقسى القضاة فى إيقاع حد الخمر من ذاق لذتها وأحس سورتها. وجررت نفسى والألم يعصر قلبى، فخرجت من وراء الستار لأعود أدراجى، تاركًا إلى الله قضائى.

ومررت فى سيرى بالثياب التى ألقتها الفتاة على الأريكة، كانت تبرق فى الضوء المنبعث عليها من بعيد، ونظرت إلى ثيابى نظرة قصيرة فرأيت جبتى وقميصى وقد حال لونهما وانكمشت أكمامهما وتفرزت جوانبهما، وتهتك أعلاهما وأسفلهما، فعذرت الحجاب فى منعى ودفعى، واستقر رأيى على أن أقترض ثياب الشيخ قرضًا حتى أستطيع إذا لبستها فى الصباح أن أجد إلى بابه سبيلا. وليس علىَّ من بأس إذ أنا اقترضتها عارية، ثم رددتها إلى السيد من بعد سليمة طاهرة. وخطفت الثياب وسعيت بها جريًا، ثم قفزت فى رحاب القصر قفزاً، حتى بلغت الفناء، وخرجت أعدو حتى بلغت دارى وأنا أتلفت إلى ورائى. وكان صاحبى كمال الدين لا يزال فى حجرتى يغط فى نومه، فلم أشأ أن أوقظه فإن متعته فى الصباح تكون أعظم إذا رآنى أطلع عليه فى بريق تلك الثياب.

ولما ذهبت فى الصباح إلى مجلس السيد الشيخ، وقفت عند الباب أريد الاستئذان، فقام الحجاب يسارعون. وحنوا لى الهامات وهزوا لى القلانس، وأطرقوا لا ينظرون إلى وجهى، وفتحوا الباب على مصراعيه ووقف بعضهم عن يمين والبعض عن شمال، حتى دخلت. وكان السيد فى صدر المجلس، فوقع بصرى عليه ووقعت عينه فى عينى. ثم رأى ملابسه تلمع علىَّ، وعرف أننى رأيت كل شىء. ففغر فاه كأنه يهم بالصياح ثم أخذ يجمع ثيابه ويلتمس رداءه، ثم تحرك قائمًا يبرق بعينيه ويختلج فى خفيه، وأقبل

نحوى فاتحًا ذراعيه، وانطلق فى تحية طويلة مؤهلا مسهلا مرحبًا مستبشرًا، حتى تلاقينا فى وسط القاعة، فضمنى إلى صدره ضمة مودة، وترك كل من حوله وأقبل على فأجلسنى عن يمينه، وأخذ يحيينى ويؤنسنى، حتى هدأ روعى، وذهب عنى وجلى، وصاح فى حجابه أن يسرعوا فى خدمتى، وأمرهم أن يعدوا لى قهوة وماء ورد لأستروح وتذهب عنى بهرة السير. ومازال بى حتى شرح صدرى وفك عقدة لسانى، وبدأت أقص عليه قصتى فى قول مبين وحجة ظاهرة، وأظهرت له الحق كله فلم أخف عنه شيئًا، ولم أحاول أن أعتذر ولا أن أستتر، حتى أفضيت إليه بكل ذات نفسى، فتبسم حرسه الله وأخذنى من تحت إبطى، وانتحى بى جانبًا وجعل يسألنى عن تفصيل أحوالى، فلان قلبى له وزالت حفيظتى عليه، وهممت أن أعتذر إليه من أخذ ثيابه، وأعده بأرجاعها إليه. ولكنه لم يمكنى من المضى فى حديثى، بل عانقنى عناق الصديق، ومد يده فدس فى كفى كيسًا ثقيلا، فتحته فيما بعد فوجدت فيه مائة من الدنانير صافية وافية. ولما استأذنته آخر الأمر فى الانصراف سألنى هل جئت إليه راكبًا، وهل حملنى جواد أم سعت بى إليه أتان، فنظرت إليه فى خجل وقلت:

– لقد كنت دائمًا أسير على قدمى منذ بعت صديقى.

فضحك حتى كاد يهتز عن وقاره وقال: أكنت تركب الصديق؟

فقلت له باسمًا: هذا صديق كان لى فى وطنى ماهوش، وكان الناس يسمونه حمارى، وكنت أسميه البطل الصامت حتى لا أشارك الناس فى شتمه.

وخفق قلبى عند ذلك خفقة شديدة إذ تذكرت صديقى المسكين الذى اضطرتى الحاجة فى وطنى إلى بيعه ومفارقته، وأطرقت حزينًا.

فقال لى السيد: لا عليك أيها الشيخ المبارك. فما كان مثلك ليسير فى جانبولاد راجلا. ثم أسرع إلى ظاهر المجلس ونادى حاجبه، وأمره أن يعد لى بغلته الشهباء. ثم نظر إلىَّ فى عطف وقال: هى بغلة فارهة، مباركة الخطوات ميمونة الروحات والغدوات، بارك الله لك فيها، ولا تنس أن تختلف إلينا عليها وأن تذكرنا فى صلاتك.

فسرى عنى كل ما كان من همى، وأحسست للسيد حرسه الله شكرًا يملأ قلبى. وسرت عنه راكبًا بغلته لابسًا ثيابه وعمامته. وكنت على طول الطريق أدعو الله له ليجزى عنى فضله ويغفر له ذنبه.

وكان أهل جانبولاد ينظرون إلىَّ وأنا سائر، فإذا قربت منهم تواثبوا لتحيتى، وأشار البعيد منهم إلىَّ بالبنان. وقصيت سائر اليوم فى دارى عاكفًا على الصلاة أشكر الله وأسبح له تسبيحًا.

■■■

١٦

اتسعت بعد ذلك حلقة دروسى وضاق بها المسجد حتى كادت تمتنع على الناس الصلاة فدعانى هذا إلى أن أتخذ دارًا خاصة جعلتها مدرسة أعلم فيها الناس كبارًا وصغارًا.

وكنت قرأت فيما قرأت عن أرسطو أن غاية التعليم أن يعرف المرء كيف يستخدم وقته إذا خلا من العمل. ولست أدرى لعمرى ما الذى حمل هذا المعلم الأول على أن يدعى مثل هذا الزعم؟ إن الناس إذا خلوا من العمل لم تعوزهم الحيلة فى استخدام وقتهم الفارغ، فالطبائع توجههم وتحتال لهم، وتميل بهم وتشرد. أما أنا فقد رأيت أن السعادة والخير لا يكونان إلا فى العمل، العمل الدائم وإن تغير وتنوع. ولا خير فيمن يخلو من عمل إلا إذا دخل فى سواه. وقد جعلت هذا المعنى شعارى وأذعته فى دروسى وأحاديثى.

جعلت أعلم تلاميذى أن أقل مراتب الإنسان أن يبذل وقته فيما يعود عليه بالمسرة وحده، وإن كانت مسرة بريئة. فالذى يقضى وقته فى نزهة إنما يبلغ أدنى مراتب الإنسان، والذى يسلى نفسه إنما يبلغ هذه المرتبة عينها، إلا إذا كان فى نزهته وفى ترفيهه إنما يتحفز إلى خير أو يساعد عليه من بعد. وعلمتهم أن الذين لا يعملون بل يجدون أوقاتهم فارغة فيحتالون على قتلها هم الطفيليون على

مائـدة الحياة. هؤلاء يطردهم الله من رحتمـه وإن كانوا لا يقارفون شرًّا. لأنهم لا يعرفون السلام ولا يعينون على الخير.

وقـد بدا لى بعد حين من مقامى فـى جانبولاد أن التعليم وحده لا يجدى إذا لم تصحبه الأعمال. فإن أسمى اللذة فى الخير لا يجدها من يتأمله بعقله، بل من يباشـره بعملـه. فأقبلت على ذلك القصد مع تلاميذى، وتحاملت فيه على نفسـه مع ضعف حولى وقلة ذات يـدى، ولو كنت من أصحـاب الأعلام لما احتجـت إلى معونة من غيرى، ولكن ما حيلتى ولم يكن لى فى جانبولاد قدور؟ ففكرت أن أتكفف النـاس أطلب منهم المعونة على مقصدى. ولكن الله يعلم ما قاسيت فى سبيل ذلك من عنت؛ فقد عجزت مرة بعد مرة ولم تفدنى ملابس القاضى شيئًا فى جمع المال. وقد يجود الناس بالتحية وحلو القـول، ولكن حلو القول لا يعين على ما كنت أسـعى فيه. فأطلت التأمـل فى هذا الأمـر وتحدثت فيه كثيرًا مـع تلاميذى. فقال لى كمال الدين يومًا: «إنه من التعسف أن تكلف الناس ما تأباه الطباع. فهل تطمع فى جانبولاد أن يحرم الناس أنفسـهم بعض مسـراتهم فى سـبيل إطعام الجائع الذى لا يجد لقمة، أو كسـوة العارى الذى يرتعد من شـدة البرد، أو مداواة المريض الذى يقع فى الطريق من الإعيـاء؟ ما كان ينبغى أن نطلب من النـار أن تطفأ بالرجاء، أو أن نطلب من الماء فى القاع أن يعلو صعدًا إلى القمم». فكانت تلك كلمة صريحة صارمة ألقت اليأس فى قلوبنا. ولكنه أردف قائلا: من شاء

الخير فايتدسس إلى الشـهوات. فنظر تلاميذى بعضهم إلى بعض وتصايحوا: «نتدسـس إلى الشـهوات؟ هذا مسـتحيل. وما جدوى الخير إذا كانت الشهوات سبيله؟». فقال كمال الدين مترفقًا: «أقصد أن نتدسـس إلى المسرات!». فقال التلاميذ: «نعم. أما هذه فلا بأس بها». وأخذنا ندبر الخطة المحكمة.

بالاختصار جعلنا نعقد فى المدرسـة كل أسبوعين مجلسًا للهو ندعو إليه علية جانبولاد وأوسـاط أهلها، وكنا نحشد فيه المغنين وصناع اللهو والمضحكين وجعلنا لذلك أجرًا، فكنا نأخذ من البعض ذهبًا ومن البعض الفضة، كل على قدر وجاهته. وكنا نميز أصحاب الذهب بمقاعد فى الصدر، فـكان هذا كافيًا لأن يبذل الجميع ذهبًا حتى صارت القاعة كلها مقاعد صدر.

وكان نجاحنـا منقطـع النظير فإن علية جانبولاد أسـرعت إلى التلبية، ولم يرد أحد منهم دعوتنا. وانهال علينا المال انهيالا... فأمكننا أن نطعم الفقراء ونكسـو المسـاكين ونعيـن المرضى على الـدواء، ولكننى مع هذا النجاح كنت أحس فى قرارة نفسـى أننى أخطأت سـبيلى، وأننى أحيى ألف سيئة فى سبيل حسنة واحدة. وما قيمة الخير إذا لم يفعله صاحبه متجهًا إليه؟

وكنـت أحـس أن الله لـن يرضى عـن عملى ولن يقبـل خيرى. ولم ألبث أن وجـدت عقوبة الله أمامى. فما كان الله ليبارك فى خير جاء عن سبيل الشهوات.

١٧

عـاد تيمور إلـى جانبولاد بعد أن قهر المللـوك وقتل الجيوش وأتـى معه بعدوه بايزيد العثمانى فى قفص من الحديد ليراه الناس ويعتبروا ويمجدوا فى الأرض اسم تيمور.

ولم تطاوعنى نفسى على الخروج مع الناس لرؤيته. فما حاجتى إلى رؤية منظر شهدت مثله فى الغابة من قبل! وزاد من زهدى فى رؤيته ما سمعت عن منظره، فقد قيل إنه أشل اليد والرجل، تعترض وجهه ضربة من سيف تركت فيه جرحًا غائراً يجعل نظرته كنظرة الفهـد. فآثرت الذهـاب إلى دار صديقى كمـال الدين لأقضى عنده اليوم، لأن مدرسـتى كانت خاوية إذ خرج أكثر تلاميذى كما خرج الناس لرؤية موكب المنتصر. ولست ألوم أحدًا منهم على ذلك فإنه من طبع الإنسان. كان الإنسان منذ القدم يعبد الأقوياء القساة.

ولـم يكن كمـال الدين وحده فى الـدار، بل كانـت معه أخته الصالحـة الكريمة «نجوى». نجـوى الطاهرة البتـول التى كانت لأخيها كل ما فى الحياة.

كانت شابة فى البضع والعشـرين وإن كنت كلما حدثتها رأيت من عقلها كمال الخمسـين، وكنت كلمـا نظرت إليها تذكرت علية ابنة علاء الدين.

كانت لها عيناها الواسعتان وجبينها الوضاح وصفحة وجهها الوضاء.

حتى لقد كان يخيل إلىَّ أحيانًا أنها هى التى رأيتها فى الهودج المزركش فى موكب السلطان فى ماهوش.

قضينا اليوم معًا وكان يومًا من الربيع مازال منذ الصبا يهزنى ويطربنى، ويعترينى فيه خشوع وتشملنى فيه رقة، كأن زهره يتفتح فى قلبى، وكأن طيره يتغنى فى حنايا صدرى. كان الربيع دائمًا يجمعنى بالخليقة ويمزجنى بالوجود ويوحى إلى أسمى المعانى. ولكن الربيع فى ذلك اليوم كان أكثر سحرًا ونشوة.

سرت فى الحديقة الصغيرة أنقل طرفى من عود إلى عود ومن زهرة إلى زهرة، على حين جلس صديقى فى ركن منها يصلى ويقرأ الأوراد. وذهبت «نجوى» إلى شؤون البيت كعادتها إذ تمهن لأحيها. وقد وجدت فى تأمل المخلوقات عبادة أسمى من كل عبادة إذ كانت كل ورقة تملأ صدرى سلامًا وشكرًا، وكل حشرة أفحص بنظرى أعضاءها وحركتها تملأ عقلى علمًا وخضوعًا. وقضيت فى جولتى حول الحديقة الصغيرة ساعات كنت فيها أحلق فى الآفاق وأهيم فى الوجود من الأزل القديم إلى الأبد المقيم إلى ما شاء الله، وكان أقل ما يقع عليه بصرى يفتح لى عالمًا لا يقل عن الفضاء الفسيح فى روعته وجلال أسراره.

رأيــت عنكبوتًا ضئيل الجســم لم أكد أتبينه فــى ضوء الصباح، ورأيت بيته الواهى وقد انعقدت عليه قطرات من الندى تلمع عليها أشعة الشمس بألوان لا حصر لها ولا يستطيع اللسان وصفها، ورأيت المخلــوق الصغير يتحرك ويلقى من فمــه خيطًا لا تبصره العين إلا إذا لمع عليه شــعاع من الضوء، فمددت إليــه أصبعى فعلق به وإذا بالعنكبــوت يتعلــق بخيطه فى طــرف أنملتى ويهتــز فى الهواء مترجحًا، ثم رأيته يتسلق الخيط حتى كاد يلمس أصبعى، فهززت يدى فإذا به يســرع فيمد من فمه غزلا رقيقًا تطاول حتى صار على أكثــر من ذراع منى. فملأنى هذا الخلق البديع عجبًا. هو آلة دقيقة الصنع عجيبة التركيب لا تكاد العين ترى لها جرمًا، ومع ذلك فله أرجل وأطراف وفيه حــواس لا أدرى عددها، وله أهداب وأجهزة وفم ومعدة وآلــة لإفراز هذا اللعاب الدقيق الذى لا يخونه إذا امتد ولا ينقطع به إذا تسلقه. كل هذا قد اجتمع متناسقًا فى نقطة ضئيلة لا تكاد العين تبصرها، فسبحانك يا الله!

وانتهــى صديقى من أوراده وجلــس ينتظرنى. وكانت «نجوى» قــد جهزت طعامًــا للإفطار، أتــم الله عليها نعمته وأســبغ عليها فضلــه، فدعتنى إلى الطعام. وما كان أطيبه! ثم قضينا ســائر اليوم فــى درس وتأمل وحديث طيب وصلاة، وكان مجلســنا يفيض بنور الله، ولم أحــس فيــه أننى معلم ألقى الدروس، بــل كنت أتعلم من صاحبىً أكثر مما كنت أعلمهما. كانت «نجوى» إذا تحدثت فتحت

فى قلبى ينابيع من الفيض فأغرق فى تأملى حينًا ثم أطفو وقد امتلأ قلبى يقينًا. ولست أدرى ما ذاك الذى كانت تحدثه فى بنظراتها الوديعة. كانت تستمع لما أقول وتنظر إلىَّ بعينيها الواسعتين الحالمتين ثم تنطق بكلمة أو بكلمات فإذا بى أسمع معنى لم يجل من قبل بخاطرى. وقد تنظر إلىَّ صامتة فإذا بى أرى عالمًا خفيًّا من الأسرار ينفتح أمام عينى.

كانت نفسها الصالحة تتصل بالملأ الأعلى، فإذا هى نطقت أنفذت بصرى الكليل إلى طرف منه فألمح لمحة سريعة تكفى لأن تفيض علىَّ من النور القدسى فيضًا غامرًا.

ولما ذهبت إلى بيتى مع وسط الليل كنت أحس أننى لا أسير فوق الأرض بل تحملنى أجنحة الملائك على متن الهواء، حتى كأن السحب قد صارت تحت مسراى وكأن تيمور وشيعته وبطشه وخوفه كانت كلها تحت مواطئ قدمى.

ذهبت إلى منزلى وجلست على كرسى كبير لم يكن فى غرفتى سواه إلى جوار النافذة المطلة على الفناء، وأشعلت المصباح ولم يكن به سوى القليل من الزيت، فجعل يتراقص ويطقطق ولا يكاد نوره يبلغ زوايا المكان. فبدت الأركان بعيدة كأنها تنتهى إلى الأفق فى طرف السماء. وأغمضت عينى وأنا جالس على الكرسى لا أريد نومًا ولكنى وجدت فى الغمض راحة أنست إليها. فأخذتنى سنة من النوم فتحت عينى بعدها على صوت سمعته يناديني. فتلفت حولى

ثـم نظرت إلى النافذة ورائى فرأيت شـخصًا واقفًا قد وضع مرفقيه علـى حافة النافذة واتكأ بذقنه على كفيه، فوسـعت عينى لأتبينه فى الضـوء الخافت فإذا به صاحبى «طوطـاط» وبادرنى قائلا: «أين كنت بالأمس؟».

فقلت له منكراً: «وما سؤالك عن هذا؟».

فنظر إلى معاتبًا وقال: «لم تذهب إلى لقاء تيمور. وقد سأل عنك».

فصحت فى فزع: «تيمور يسأل عنى؟».

فقال جادًّا: «وما تعجبك من هذا؟».

فقلت: «إنه لم يرنى».

فقال ضاحكاً: «ولكنه يعرفك. ألا تفهم؟ إن تيمور لا يخفى عليه علم بأحد».

فأزعجنـى قوله وداخلنى منه هم زادنـى قلقًا، فأطرقت صامتًا أفكر فيما عسـاه ذكرنى به. فقرب «طوطـاط» منى وهمس فى أذنى «احذر!».

فقلت له مبادرًا: «مم أحذر وما بى ما أحذر منه؟».

فقال جادًّا: «ألجم لسانك هذا. كفاك ما صنع بك».

فنظرت إليه فى دهشة وقلت: «لسانى أنا؟».

فقال لى فى رفق: «نعم. فما هذه الدروس التى تلقيها، وما هذه الكرامة الإنسـانية التـى تتحدث عنها؟ ثم ما هـذه الأغانى التى

توسع لها صدر مدرستك؟ وماذا عليك إذا شئت الغناء أن تجعله فى بيت رجل مثلى ليكون طربك فى ستر وتجمل؟».

ثم غمزنى فى ذراعى هامسًا: «لا تذهب إلى المدرسة منذ اليوم، فقد أمر تيمور بإغلاقها».

قال هذا ومضى عنى مسرعًا.

كانت كلمته هذه مثل الصاعقة تنقض علىَّ، واسودت الدنيا فى عينى ولم أدر ماذا أصنع. وشعرت عند ذلك أول مرة أننى واقف وجهًا لوجه أمام تيمور، وتمثلت لى كل قوته وكل سطوته وأحسست الخوف يملكنى. لقد كنت من قبل أتأمل جبروته بالفكر وأسمع عن بطشه بالأذن، وأمقت كل هذا وأنا بعيد عنه، ولكنى عند ذلك رأيت نفسى وضعفى أمام سلطانه الهائل، فخَّيم اليأس علىّ وشل حركتى.

فقمت منتفضاً عن مقعدى، وقد شعرت بأنه لم يبق لى فى جانبولاد مقام؛ فإنى لا أستطيع البقاء فيها إلا إذا رضيت بأن أذهب إلى تيمور وأتمسح عند أقدامه.

وقمت إلى الصلاة واتجهت إلى الله أن يسدد خطاى وأن ينقذنى من الوسواس، فلما فرغت منها عدت إلى نفسى أحاسبها حسابًا عسيراً. فهى التى زينت لى اتخاذ دار العلم مسرحًا للهو، وهى التى جعلتنى أفرط وأسِفّ فى سبيل الذهب. وامتلأ قلبى سخطًا على ذلك المعدن الخسيس الذى أضلنى فإن الله لم يجعل سبيلا إلا على من ظلم وأخطأ. وأقبلت على صلاتى أستغفر فيها ربى من ذلك

الإثم الذى وقعت فيه. وجعلت أناقش نفسى وأحاجُّها فى الهجرة وترجحت بى الميول بين المشقة وبين الكرامة، ولم أستطع أن أهتدى إلى رأى بينهما إذ كان أحلى الخطتين مرًّا. وفيما كنت فى حيرتى برقت لى بارقة من الأمل فألقى فى روعى عزم رأيت فيه فرصة الخلاص مما كنت فيه. بدا لى أن الهجرة نوع من الهروب وأننى لا ينبغى لى أن أهرب حتى أبلى فى سبيل الحق بلاء ألتمس فيه العذر لنفسى، فإذا اضطررت بعد ذلك إلى الهجرة لم أجد على نفسى سخطًا أو لومًا. فعزمت على أن أقيم فى جانبولاد وأن أجاهد فى سبيل الحق ما استطعت، وأن أقابل الجبروت بالتحدى، وأرفع رأسى كريمًا لا أحنيه لقوة ظالمة، فإذا أصابنى من ذلك ما يصيب الشهداء كنت قد بلغت عذرى. وامتلأ قلبى يقينًا بأننى لن أخشى قوة الطغاة فوالله إن الحق ليصرعهم لو نطق به من ملأه الإيمان.

وعزمت بعد ذلك على أن أصحح مكانى فى جانبولاد، وأن أضع نفسى حيث كان يليق بها أن تكون. فإنى لم أكن مساويًا لهم. فإذا كان سادة جانبولاد قد تواضعوا على أن يجعلوا الأمر كله لأنفسهم، فلن أسمح بأن أكون دونهم فى شىء. عزمت على أن أدخل نفسى قسرًا إلى المكان الذى يليق بى. وما كان لمثلى إلا أن يكون فى المحل الكريم. وما كدت أستقر على هذا الرأى حتى أخذت فى الاستعداد له واجتهدت فيه اجتهادًا كبيرًا.

١٨

كانت الأعلام فى جانبولاد لا ترفع طبعًا إلا إذا ملأ الناس قدورًا من الذهب بعددها، ولكن مالى وللذهب؟ قد رسم السادة خطتهم على أن يجعلوا الذهب وقفًا عليهم، فكانت النتيجة أن الذكاء والعلم والأدب والخير والفضل لم يصبها منه شىء، إذ لم تجعل لها قيم فى خطتهم المرسومة. وما كنت لأقيد نفسى بقواعدهم منذ عزمت على أن أطيع الحق وحده، ولا أنظر إلا إلى جوهر الأشياء. فلو أنصف الناس لجعلوا المكان الأول فى القيم كلها للذكاء والفضل وأمثالهما مما ضاع قدره فى جانبولاد.

ومهما يكن من الأمر فقد استقر رأيى على أن أستغنى عن الذهب وأتخذ لنفسى معيارًا رمزيًّا أجازى به الأفعال بما تستحقه. والذهب بعد التفكير لا يزيد على أنه معدن مثل كل معادن الأرض، فهو كالحجر لا يزيد على أنه من عناصر الطين، وهو لا يستحق كل هذه العناية التى يحيطونه بها، إذ هو لا يؤكل ولا يشرب ولا يلبس، وشربة واحدة من الماء فى الصحراء تكون أغلى من كل ذهب الأرض. وإذا كان المقصود إنما هو وضعه فى القدور وختمها بعد ذلك فلن يضير القدور شىء إذا ملئت بشىء آخر كالحصا

أو الحجـارة، ولن تكون قدر من الخزف خيرًا لأن واحدة مختومة على الذهب والأخرى مختومة على الحجارة.

فعمدت إلى قرطـاس كتبت عليه أنواعًا من العمل، وكتبت أمام كل منها ما يسـتحقه من وزن الذهـب لو أنصف الناس، ثم عمدت إلى قرطـاس آخر كتبت عليه أنواعاً من النقـص أو الظلم أو أعمال السوء، وجعلت ما يقابلها من العقوبة مقدرًا بوزن الذهب. وعزمت على أن أحاسب على أعمالها جميعًا فأقدر ما قدمت من خير وأجعل لـكل عمل من ذلك وزنًا ألقيه فى قدر - أقصد وزناً من الحصى بدلا من الذهب. فإذا ما امتـلأت قدر ختمتها ورفعت على دارى علمًا، وكلما ملأت أخرى وختمتها رفعت علمًا آخر.

ولم أنس محاسـبة نفسـى على ما تجترم من الذنوب، فعزمت على أن أنقص من القدور ما يعادل قيمة عقوبتها على آثامها، حتى لا يبقـى فيها إلا وزن ما هو باق لى من الحسـنات الخالصة وكنت فى ذلك متحرجًا متأثمًا، فإن الله قد وعدنا معاشر البشر لما علم من ضعف الطبيعة الإنسـانية أن نجزى على الحسنة بعشرة أمثالها، وألا نجزى على السـيئة إلا بمثلهـا، فبالغت فى الحيطة وجعلت الحسنة والسيئة سواء فى الأجر والعقوبة.

ولأضـرب مثلا ممـا وضعت من القيـم لأبين أننى لـم أغال فى التقديـر، فقد جعلت لإطعام الفقير وزن حبـة من الرمل، ولعيادة المريـض وزن حصاة صغيرة؛ فإن هذه من الواجبات التى لا ينبغى

لأحـد أن يطلب عليها الأجر. وجعلت لكتابة رسـالة فى الأخلاق وزن حصاة كبيرة، ولكتابة رسالة فى التاريخ وزن درهم لأنه سجل الأمـم وهو يعلـم الناس أن الحيـاة تفنى ولا يبقى علـى الدهر إلا الخيـر، وأن الظلم مرتعـه وخيم، وأن العسـف لا يقيم الدول إلا إلـى حين. وجعلت لكتابة القصة وزن أقة لأن القصة لا يقدر عليها إلا مـن وهـب الله له من فضله. ولـم يكن فى تقديـرى مبالغة فإن الخلفاء العظماء كانوا فيما مضى يجيزون الشـعراء بمئات الألوف مـن الدراهم على أبيات فـى المدح الكاذب، أو فـى وصف الخمر واللهـو، فإذا أنا جعلـت للقصة وزن أقة واحدة من الذهب! لم أكن مغاليـاً. وجعلت لتعليم النـاس قدرًا كاملة - نعـم! قدرًا كاملة، فالتعليم يطهر النفوس ويبنى أساس المستقبل ويفهم الناس معنى الإنسـانية. فإذا خرّج المعلم رجلا كاملا أضاف به إلى الأمة ثروة لا تقـدر بمال. وما كنت لأبخس التعليم حقـه وأنا أعرف قيمته، ولـن يضيرنى أن تيمـور وعلية جانبولاد لا يعرفـون له قدره فإن الحقائق لا يستطيع إدراكها إلا من يسمو بذكائه إلى المعانى العليا.

ولما انتهيت إلى ذلك أخذت فى إعداد القدور والحصى واستطعت أن أملأ لنفسـى قدرين كبيرتين، ثم عمدت إلـى ثوب فقددت منه ما يكفـى لصنع علمين، فمـا أتى العصر حتـى كان علمان أصفران بديعان يخفقان فى الهواء فوق دارى.

ثم أسرعت إلى دار صديقى كمال الدين لأقضى معه ساعات فى الدرس والعبادة، إذ قضيت اليوم كله لاهيًا عن عبادتى، وأحسست شوقاً إلى مجلس العلم، وحمدت الله إذ بقى لى فى جانبولاد صديق أتذوق معه لذة الدرس. فلما طرقت الباب فتحت لى «نجوى» الكريمة الصالحة، فهشت إلىَّ وبشت، ونظرت إليها وكأن نورًا يشع منها إلى قلبى. وخفق قلبى فأسرعت داخلا وأغضيت حتى لا أطيل النظر إليها. ولست أدرى لم كانت صورتها تنطبع فى خيالى وتعاودنى فى خلواتى وتلازمنى فى سيرى، حتى كادت تنافس الصورة التى طويت عليها جوانحى وجعلتها رمز الكمال والأمل: صورة علية ابنة علاء الدين.

وبعد قليل جاء أخوها، فجلسنا ثلاثتنا نتدارس ونتعاطى أطيب الحديث وصلينا وقرأنا الأوراد حتى مضى صدر من الليل، وأخبرتهما بما كان من أمرى؛ فاختلفت فيه الآراء، وراجعنى كمال الدين فى رأيى مراجعة شديدة ولكننى ما كنت لأرجع عن أمر تبين لى فيه وجه الحق، ولم يراجعنى كمال الدين إلا لأنه خشى علىَّ من عواقبه. ولكن ما هذه العواقب التى يخشاها؟ إن الحق واضح ولا يليق بنا أن نتردد فيه.

ثم قمت عائدًا إلى دارى والسرور يملأ قلبى، والأمل يضىء لى سبيلى، ولم أنس أن أذكر نظرة «نجوى» عندما ودعتها. لقد خفق قلبى حفقة شديدة عندما نظرت إلى عينيها الواسعتين، ولست

أستطيع أن أعبر عن أثر نظراتها فى نفسى، فإن الألفاظ تتضاءل عن وصفه - تلك الألفاظ التى لم يتخذها الناس إلا مطية لما اعتادوه من معانيهم. حقًّا أنى لم ألبث أن غضضت من بصرى وسرت عنها مسرعاً ولكنى جعلت ألوم نفسى، فما كان ينبغى لى أن أستبيح تلك المتعة من النظر إلى جمالها البارع وملء عينى منه. ومضيت فى سبيلى وصورتها ماثلة فى قلبى حتى غلبت على الصورة علية ابنة علاء الدين. مالى وعلية! إنها ليست إلا خيالا، وهذه «نجوى» الطاهرة التى كنت أسمع حديثها وأستوحى العلا من نظرتها.

«نجوى» التى كنت أراها حقيقة أمامى. وما يدرينى إذا أنا رأيت علية وحدثتها كيف أجد حقيقتها؟ ألا أراها ترفع حاجبيها استعلاء وتزور عنى ولا تهش لى كما تهش نجوى الكريمة إذا لقيتها؟

بلغت منزلى أخيراً ولم أنس أن أحاسب نفسى على نظرتى التى نظرتها. فأخذت حفنة من الحصى من إحدى القدرين وقذفت بها إلى جانب، ثم قمت إلى أحد العلمين فحططته عن دارى ريثما ييسر الله من الحسنات ما يعوض ذلك النقص. وأطلت فى ليلتى من القيام بالصلاة لعل الله يتجاوز عن خطيئتى. وعزمت على أن أمسك قلبى من بعد فلا أنظر إلى «نجوى» إلا كما نظر موسى إلى النور المقدس.

■■■

١٩

كانت الليالى بطيئة كأنها تزحف زحف الدبى، وكانت النجوم تلمع من وراء القضبان الحديدية الغليظة كأنها قد سمرت فى مواضعها من السماء. وكنت أقفقف من البرد فى سجنى المظلم، ولولا الصلاة وقرة عينى فيها لتمزق صدرى من غيظه وتطايرت عنه أضلاعى. قذف بى فى السجن كما ترمى الهرة فى البئر أو كما يخبط الحجر فيتدحرج إلى الهاوية. وقد حاولت أن أعرف ما الذى دعا إلى سجنى وأنا رجل قد كفيت الناس كل أمرى فلم أستطع أن أهتدى إلى شىء، لأن السجان الفظ كان يأبى أن يكلمنى، وكنت لا أرى سواه إلا بعض رفاق كانوا مثلى لا يعرفون لهم جريمة.

وبقيت كذلك إلى أن أحسست يوماً على جدار جحرى حسًّا فنظرت حولى ورفعت رأسى فإذا وجه يطل علىّ من بين القضبان. فبرقت فيه لأعرفه فلم يسعفنى الضوء الضئيل. ثم رأيته يفتح فمه الأهتم ويهمس يناديني، فصعدت بصرى فيه حتى بلغت رأسه الأصلع وصحت فرحًا «طوطاط!» فهز رأسه وهو صامت، وكان يحاول فى مشقة أن يلف ذراعه اليمنى حول القضبان ليتعلق بها، ثم رمى إلىَّ حزمة بيده اليسرى وقال هامسًا: «كيف حالك؟ تشجع!».

فصحت به: «قل لى لم جيء بى إلى هنا».

فقال متأثراً: «ألم أقل لك؟ إنك لا تسمع النصح. كيف تجرأت على تزوير القدور؟».

وعند ذلك ثقل جسمه على ذراعه فاختل تماسكه ووثب إلى الأرض بعد أن قال لى: «تصبر».

فعدت إلى وحدتى حزينًا أفكر فيما مضى بى من أيامى فى جانبولاد. وأقبلت على نفسى ألومها على الخروج من الوطن، ولاحت لى ماهوش عند ذلك جنة نعيم. حقًّا لقد خرجت منها حانقًا لأننى لم أجد لى بها مكانًا، ولكنى كنت أتكلم فيها وكنت أضحك وكنت أسخر، وما كنت أرى فيها أحدًا خيرًا منى. بل لقد ذهبت يومًا لأسطو عامدًا على أموال الناس لآخذ حقى من أرزاق ماهوش غضبًا، وعدت أحمل ما أخذته عن رضا. أيها الوطن العزيز، كنت أجد فيك الحب فجحدت نعمتك، وهأنذا أذوق عقوبة الجحود. لقد كاد قاضى جانبولاد يحدنى فى جرم لم أرتكبه، ولولا أننى لبست ملابسه لأصابنى العذاب والعار. ثم أغلق تيمور مدرستى مدعيًا بأننى أذيع فيها الفساد وأتخذها مسرحًا للهو، وهذا هو يلقى بى فى السجن لأننى زورت القدور. أى قدور هذه التى زورتها! إن الطغاة لا تعوزهم الحجج إذا شاءوا التماسها. ويا ليتهم إذا أرادوا البطش اتجهوا إليه كما يتجه الضبع إلى فريسته مكشرًا صريحًا لا يعرف مواربة ولا رياء. ليتهم يفعلون ذلك فيبلغوا العذر لأن

هذا هو قانون الغابة، ولا بأس فيه على القوى إذا سطا بالضعيف. ولكنهم يأبون إلا أن يتستروا وراء ما يقيمونه من القواعد ويسمون ذلك عدلا.

ذكرت ما كان من حوادث الأيام الماضية، وأيقنت أن القدور كانت سبب بليتى. فإننى ما كدت أضع العلم فوق بيتى حتى رأيت الناس يجتمعون حوله منذ الصباح، وينظرون إليه متهامسين. فحسبت أنهم يعجبون بلونه ورشاقة خفقاته. ثم أتى الليل فجاء إلىَّ رجل من هؤلاء أصحاب الريش، فأخذ يسألنى عن علمى وعن قدرى، وزعم أنه لابد له من الاطلاع عليها حتى يختمها بنفسه. هكذا زعم وقال لى إن أعلام جانبولاد لا ترفع إلا إذا ختم القدور بيده وتحقق من أنها مملوءة. فذهبت معه إلى القدر ففض ختامها ودس يده فيها، فصحت به حانقًا: «ماذا تفعل؟» ولكنه كان قد سبق صيحتى وأخرج يده من القدر مملوءة بالحصى. فنظر إلىَّ ضاحكًا وقال لى: «ما هذا؟» فلم أجد بدًّا من أن أشرح له الأمر كله، وهو يهز رأسه حتى فرغت من قولى بعد أن أوضحت له كل ما قد يبهم عليه. فذهب عنى صامتًا بعد أن نظر نحوى نظرة عجيبة. فلم أعبأ بنظرته لما علمته من غرابة أطوار أصحاب الريش، وعدت إلى غرفتى لأهيئ عشائى وما كدت أفعل حتى جاءنى جماعة من الشرط يأمروننى أن أسير معهم. ولم تجدنى فيهم مساءلة ولا مدافعة، فقادونى إلى هذا السجن بغير أن يتكلموا كلمة واحدة.

ومرت بى الأيام بسجنى فى بطء، لا يقطع ظلامها إلا شعاع ضئيل من النجوم الوامضة الباردة، التى لا تفتأ تحدث حديث الأجيال الفانية.ولم يكن أحد يقطع علىّ وحشة الوحدة إلا صورة «نجوى» التى كانت تلازمنى، ثم صاحبى «طوطاط» إذ يتسلق الجدار من خارج ويتعلق بالقضبان حينًا ويهمس لى بكلمات قصيرة. وكان فى كل مرة يرمى إلىَّ ربطة فيها ما يتفق له من طعام أو ملبس، وكان أحيانًا يطرفنى ببعض الفاكهة أو الحلوى فكانت إلمامته القصيرة تبعث فى قلبى أنسًا يقيم فيه أيامًا. جزاه الله من صاحب كريم.

وكانت آخر مرة جاء فيها «طوطاط» لزيارتى فى ليلة من رمضان، وكنت أستعد للصلاة قبل الإفطار، فقذف إلىَّ ربطته قائلا:

– هى سنبوذجة لسحورك. صنعتها بيدى.

فخفق قلبى عندما تذكرت طعامه الذى صنعه بيده على جانب الغابة، فما كان أشهاه من طعام، كان القمر يضىء الفضاء، وكان هواء الربيع طلقًا لا يشبه فى شىء هواء سجنى. وهممت بأن أشكره على بره وكرمه ولكنه قاطعنى هامساً: «تشجع. إن تيمور قد ذكرك».

فصحت به: «ذكرنى؟ وهل كان ذكره إياى إلا شؤمًا؟».

فهمس قائلا: «هذا شىء آخر. كنت عند ذلك طليقًا حرًّا».

فصحت: «ألا يكون شؤمه إلا على الأحرار؟».

فهمس فى رعب: «صه؟ ألجم ذلك اللسان. اسمع. نسيت أن أخبرك أن لك رسالة مع السنبوذجة. خطاب. أسمعت؟».

ثم قهقه وقال: «لقد صرت لك عامل بريد».

فاضطرب جسمه فى ضحكه وثقل على ذراعه فخلصها من بين القضبان ووثب على الأرض.

فأسرعت إلى الربطة ففككتها وتلمست الرسالة من طياتها، ولكنى تذكرت الظلام، فألقيت بها حانقًا وقضيت الليلة مفكرًا مهمومًا لم أذق طعامًا، وكانت همومى لا تفارقنى إلا إذا قمت للصلاة. كانت الأفكار تشرد بى دائمًا إلى جانب الغابة فأذكر ما رأيت فيها وما سمعت، وتمثلت لى قوانين الإنسان فى مجتمعاته أشد قسوة من القانون الطليق الذى يسرى فى الغابة. وبدا لى فى ظلمة سجنى أن قانون الأسود والفهود أقرب إلى الرحمة من تلك القيود التى يضعها تيمور. فالأسد لا يقتل لأنه يحب القتل بل لأنه يريد أن يشبع جوعه. وليس فى قانون الغابة مثل هذه السجون المظلمة التى يزيد عذابها على عذاب ساعة تعانيها الفريسة قبل أن تنزلق إلى بطن الوحش المفترس.

هكذا قضيت الليلة فى تفكيرى الحانق حتى طلع الصباح، وكنت أترقب دخول الشعاع الضئيل من النور لكى أستطيع أن أقرأ الرسالة. فما كدت أتبين الحروف حتى أقبلت عليها أقرؤها مع ما أصاب عينى من الألم فى قراءتها على النور الضئيل. ولكنى لا أذكر سرورًا كان أعظم عندى فى يوم من أيام حياتى مما أحسسته بعد أن مضيت فى قراءتها. لقد تحرك المساكين الذين كنت أعلمهم وأواسيهم.

تحركـوا من أجلى وعزموا على النزوح من جانبولاد. هكذا أخبرنى صديقى كمال الدين فى رسالته، جزاه الله خيرًا. ولم ينس أن يبعث إلـى فى خطابه تحية من أخته الصالحة. كتبت نجوى إلىَّ تحيتها تشـد من عزيمتى وتدعو لى بالفرج القريب. إننى لم أزل منذ حللت فى ذلك السجن أراها أمام عينى، ولكن أفكارى السوداء كانت تجعل لصورتهـا إطارًا من الأحزان والآلام. أمـا صورتها التى ملأت قلبى عندما قرأت تحيتها فقد كان إطارها من السلام والسعادة.

دب الأمل إلى قلبى وصار يرفه عنى أثر ضيق السـجن وظلامه. ومـا أكرم مسـاكين جانبولاد! ليـس لبلد أمل فى الحيـاة إذا فقد مسـاكينه، فهم الأيدى وهم الأرجل وهم القلوب والأحشاء. لا قوام لأمة بدونهم ولن يسـتقيم أمر أمة إلا إذا سـاوت بين رأسها وبين سائر أعضائها فيما يجب لكل منها من الرعاية والحرمة والكرامة.

ولكن الطغيان أعمى، ولا سـبيل إلى فتـح عينيه إلا بأن يظهره المسـاكين على أنه لا حياة له من غيرهم. يسـتطيع المسـاكين أن يعيشـوا فى الأرض الفسـيحة، فإن عندهم الأيدى والأرجل تعمل وتسـعى، وهـم يجدون وطنـاً حيث يحلـون لأنهم فـى كل وطن يخدمون. ولن يضرهم أن تـزول الحروب بين الأمم وأن تكون بلاد الله كلها للإنسان.

لم أشك فى أن تيمور قد فزع واضطرب من هؤلاء المساكين الذين أرادوا الخـروج من جانبولاد. أيها الأشـقياء لو اطلعتم على ما فى

قلوب الطغاة وهم يدوسونكم بأقدامهم لسركم ما تطلعون عليه. إنهم يخشونكم وأنتم صرعى ويعرفون ضعفهم وقوتكم.

ولقد صدق ظنى فيما ذهب إليه، فما أتى عصر ذلك اليوم حتى سمعت السجان يعالج فتح باب جحرى ثم سمعت صراخ المصراعين وهما ينفرجان ثم رأيت ذنب السيد الذى انحنى وهو داخل من الباب المطأطئ.كان الذنب يضطرب فوق قلنسوة حريرية صفراء عند ما فتح الباب. ولما دخل الذنب دخل وراءه السيد. وكان مثل الببغاء كسائر أصحابه، حتى كدت أقهقه من رؤيته، ولكنى أمسكت نفسى ونظرت إليه صامتًا.

فنظر إلى مبتسمًا وقال بعد أن حيا: «أنت رجل طيب. هكذا يقول الناس عنك. وليس السجن بالمقام اللائق بك». ثم نظر حوله مشمئزًا.

فقلت له: «لاشك فيما تقوله أيها السيد. إننى أحب السير فى ضوء الشمس والتنفس من الهواء الطلق، وأحب أن أذهب حيث شئت وأتكلم مع من أحببت وأقول ما يدور فى نفسى إذا أردت. أحب كل ذلك وأحس تلك الجدران التى أقيم بينها تكاد تنطبق علىَّ وتزهق أنفاسى بركود هوائها وظلمتها».

فهز رأسه موافقًا وقال: «وإذًا فأنت ترى مصلحتك فى التخلص منها؟»

فصحت: «مصلحتى! إنما هو حقى».

فقـال الرجل متراجعًا: «حقك! ليس من حقك أن تسـير الأمور حسب أهوائك».

فقلت فى حنق: «بل أقول إنه حقى، وليس لأحد أن يسلبنى إياه».

فاحمـر وجهه ونظر إلىَّ نظرة بشـعة وقال: «أهذا ما تعلمته فى سجنك؟»

فقلت مبتسمًا: «نعم تعلمت من السجن أشياء كثيرة».

فقال سـاخرًا: «تعلمت مثلا أن توجه ألفاظًا جافية إلى من جاء يحسن إليك».

فأخـذ الغضـب منى مأخذه وصحت به: «تحسـن إلـىَّ! إننى لا أقبل منك إحسانًا. إن من حقى أن أكون حرًّا. ولو كنت مجرمًا لما كان هذا السـجن عقابًا جديرًا بإنسانيتى. اقطع يد السارق واتركه حرًّا، واقتل القاتل ودع روحه حرة، إن الحرية أثمن من اليد ومن الجسد كله».

فنظر إلىَّ صامتًا والدهشة تعقل لسانه، ثم حاول أن يهدئ نفسه وقال: «دعنا من هذا القول الحانق. كن هادئًا وافهم فيم أتيت إليك».

فقلـت له هادئًا: «هأنذا ترانى هادئـاً. ولكنى أنطق بالحق. قد علمنى السجن ألا أمانع نفسى من قول كلمة أراها حقًّا. كنت أحيانًا أتردد فى قولها من خوف هذا السجن، فلما دخلته وتحملت ضيقه وجدت أن كل ما فيه من عذاب وألم أقل قسوة من الشقاء الذى يسببه الامتناع عن قول الحق».

فقال الرجل متكلفًا العطف: «لسنا نخشى الحق. قل ماشئت من الحق الصحيح».

فضحكت مقهقهًا، وكانت تلك فلتة لمت نفسى عليها، ولكنى لم أقدر على الامتناع منها، ثم قلت: «هنالك إذًا حق صحيح وآخر غير صحيح؟ إنما أعرف الحق حقًّا. فإذا لم يكنه كان باطلا».

فتحرك الرجل فى قلق ولكنه تكلف الهدوء وقال باسما: «قله إذًا. قل الحق».

فقلت مسرعًا: «لقد قلت ما ثار فى نفسى وهذا حسبى الآن».

فقال فى عطف متكلف: «أنت مخطئ فى تقديرك كله. لست من هؤلاء الأغرار الذين يليق بهم أن يخطئوا وأن يعاقبوا. فأنت رجل عالم لست من السوقة الرعاع».

فقلت مندفعًا: «السوقة الرعاع؟ من هؤلاء؟ لا أعرف سوقة ولا رعاعًا إلا هؤلاء الذين يملأون الأرض فسادًا. وأما رجل الحقل الذى يلوث يديه بالطين ويسير عارى القدمين ممزق الثياب، ويذهب آخر اليوم إلى أهله بحزمة من الفجل ورغيفين - أما هذا فرجل وهب نفسه للعمل ووهب ماله إلى الآخرين. فإذا كان من السوقة الرعاع فما أحب إلىَّ أن أكون منهم». فقال السيد متأففًا: «أوه! أقصد أنك رجل عاقل لا ترضى بالفوضى».

فقلت: «لست أرضى بالفوضى لبلد من بلاد الله».

فقال مرتاحًا: «إذًا قد اتفقنا، وأنا آت إليك موفدًا من مولاى تيمور العظيم، إنه يمد يده إليك». فصحت فى دهشة: «أنا؟ يمد يده إلىَّ أنا؟ أنا هنا أسير ويد الأسير مغلولة».

فقال معاتبًا: «أنت تتجنى. هذا كرم لا ترفضه».

فقلت وأنا أغص بريقى: «كرم؟ ما الذى حمله على القذف بى إلى هنا؟ أليس هذا بغيًا؟ وهل إزالة البغى تكرم؟».

فصاح فى حنق: «أنت تصدنى وتمعن فى جرح كرامتى، وتستهين باسم مولاى».

فقلت له هادئًا: «لست أفهم».

فتحرك ضجرًا وقال: «إذًا أنت ترفض السلام».

فقلت: «الذى يريد السلام لا يستشير فيه».

فصاح وقد نفد صبره: «هذا تعنت. هذا عناد».

فقلت وقلبى يدمى: «أنا فى سجنى كأننى لست شيئًا. لقد سلبتم حقى فى الحياة حرًّا وأنتم أصحاب الحول والقوة. ردوا علىَّ حريتى فهذا حقى».

فقال وقد ثار: «لقد علمت أنك لا تجيب إلى السلام، فلتتحمل العقبى». فلم أتمالك أن قهقهت مرة أخرى وقلت: «تهددنى؟ وماذا يأخذ الريح من البلاط؟».

فجعل الرجل يشتم ويهدر بألفاظ لم أفهم معناها، وكان منظره مسليًا فوقفت أنظر إليه حتى تسكن، ثم قلت له: «إذا كانت الحقيقة تغضبك فما ذلك من ذنبى».

فأخذ يرعد ويبرق وقبض يده فرفعها نحوى صائحًا: «اخرس!»

فنظرت إليه هادئًا ولا أزال أضحك وقلت: «أهكذا تخشى لسانى»

فدفعنى دفعة غيظ كدت أقع منها، ولكنى لم أشأ أن يخرج بغير أن أسمعه آخر كلماتى فقلت:

«ستقف معى أنت وسيدك وجهًا لوجه أمام الأبد. ستقفان وجهًا لوجه أمامى والعار يقطر من وجهيكما، وتتردد أصداء هذا الحديث جيلا بعد جيل إلى يوم القيامة. وستشهد الأجيال قوتى وضعفكم وثباتى وهروبكم وحقى وظلمكم. وليس فوق الظلم ما يمكن أن يسب به صاحب السلطان».

فصاح الرجل صياحًا عاليًا لم أفهم منه لفظًا، وخرج يخبط الأرض فى عنف، ثم تضاءلت أصداء خطواته فى السراديب بعد حين وعاد السكون العميق، ثم أتى السجان إلى حجرتى فأعاد المصراعين إلى إغلاقهما، وكان الليل قد أخذ يرخى سدوله، واختفى الشعاع الضئيل من الضوء وأقبل علىَّ الظلام الكثيف يلف ما حولى، ولكن قلبى كان يشتعل ويضىء. وقمت أصلى لله شكرًا فقد نصرنى فى سجنى على تيمور فى جبروته.

■■■

٢٠

لم أنم من الليل شيئًا بعد أن انصرف عنى الرجل صاحب الذنب، ولكنى كنت مطمئن القلب مبتهجًا. فلما مضى الليل وأطلت علىَّ بوادر أشعة النهار الضئيلة من وراء قضبان سجنى، سمعت صرير المفتاح فى باب حجرتى، ثم رأيت الباب يفتح ودخل منه السجان حاملا فى يده صرة. فتبسم فى وجهى أول بسمة منذ رأيته، ثم ألقى إلىَّ الصرة وقال: «هذه خلعة مولاى». فنظرت إليه ولم أفهم ما يقصد من قوله، فأعاد كلماته وهو يزيد فى ابتسامته اتساعًا وقال متلطفاً: «خلعة مولاى تيمور العظيم، لكى تلبسها ثم تمضى إليه مع الأمير صاحب الذنب الذى ينتظرك عند الباب». فدار بى رأسى وحسبت أننى فى رؤيا، وتحركت فى موضعى ولمست بلاط الحجرة بيدى فوجدته باردًا قاسيًا كعهدى به، ثم قمت ومشيت وتكلمت لأتأكد من أننى لست نائمًا. ثم خررت لله ساجدًا. ولم أنظر إلى الصرة وتركتها ملقاة على الأرض، وخرجت أتلمس الطريق والسجان يرشدنى كلما أخطأته، حتى بلغت الباب، فرأيت صاحب الذنب الذى كان عندى بالأمس واقفًا مقطب الوجه، فلم أنظر إليه وخرجت إلى الطريق بعد أن مكثت فى سجنى شهرين وعشرة أيام وساعتين. وهبت علىَّ أنسام الصباح الباردة، تلك الأنسام الرطبة

التى تحمل عطر الفضاء الفسيح ولا تلوثها جدران السجون. ووقفت حينًا أملأ صدرى منها وأنظر إلى السماء الصافية اللامعة، وأنوار الصباح الرفيقة الباسمة، وامتلأت عيناى بالدمع. ثم سرت وقلبى يهتف بالشكر لله الذى له الأمر كله، والذى يلطف فى الخطب الجسيم وينعم بما لا يحصى من الآ لاء.

وسمعت الأمير صاحب الذنب بعد حين يناديني من ورائى «إلى أين؟» فلم ألتفت إليه لأننى كنت منصرفًا إلى تسبيح قلبى، فأسرع حتى صار إلى جانبى وأمسك بذراعى وقال معبسًا: «أما تعرف أن تيمور ينتظر؟» فرفعت بصرى إليه وكان رجلا طوالاً، وقلت له مترفقًا: «أما تعفينى!» فقال وهو يقلل من عبوسه: «وهل هو أمرى حتى أعفيك؟ إنه أمر مولاى». فتنبهت إلى نفسى وزالت دهشتى فتمثلت لى حقيقة الحال وعلمت أننى مطلوب إلى مجلس تيمور. وماذا كان تيمور يبغى منى؟ فتلطفت فى القول وخاطبت الرجل خطابًا لينًا فقلت له: «إذا تكرمت علىَّ بساعة أذهب فيها إلى دارى لأصلى سألت الله لك العافية». وما قلت ذلك حتى سمعت صوتًا يصرخ من ورائى يناديني باسمى، فالتفت فإذا السجان يشتد مسرعًا نحوى وهو يحمل صرة فى يده. فوقفت حتى صار إلى جانبى ومد يده بالصرة قائلا وهو يلهث: «أتريد أن تذهب إلى البادشاه بهذه الملابس؟». فنظرت إلى ملابسى التى كانت من قبل ملابس السيد القاضى فرأيتها فى الحق زرية لا تليق إلا أن تلبس فى السجون.

فأخذت الصرة من السجان وشكرته على ما تكلف من المشقة. ثم نظرت إلى الأمير الذى إلى جانبى فوجدته ينظر إلىَّ باسمًا، فاستبشرت وتبسمت إليه مستعطفًا فقال: «لا بأس عليك أن تذهب إلى دارك ساعة ثم أحضر إليك لأسير بك إلى مولاى. فإنه يريد أن يراك فى ساعة الغداء». وكان هذا القول مدهشًا فى الحقيقة، ولكنى لم أقف لأندهش بل أسرعت قاصدًا إلى دار صديقى كمال الدين، فما كان أشوقنى إليه، وما كان أشوقنى إلى طلعة أخته الصالحة المباركة «نجوى»، ما كان أشد شوقى إليها! فلما بلغت الدار طرقت الباب ووقفت أنتظر متلهفًا، فأبطأ علىَّ الجواب حينًا، ثم سمعت صوتًا يسأل: «من هذا؟» وكان صوتًا حبيبًا. فقلت بصوت متهدج «أنا جحا».

فسمعت صيحة مكتومة ثم فتح الباب وظهرت «نجوى» من ورائه تنظر باسمة بعينيها الواسعتين وقالت فى حماسة يغالبها الحياء: «مرحبًا بك!» ولمحت تحت جفنيها ماء يترقرق.

ثم احمر وجهها، فأصبح مثل لون الوردة فى الصباح إذا بللها الندى، فأسرعت أنفاسى ودق قلبى ومددت يدى أصافحها، وغالبت نفسى التى كانت تدفعنى إلى ضمها إلى صدرى. ويعلم الله أن ذلك لم يكن من شوق هذه الأرض، بل كان رحمة ورقة فى صفاء نور السماء. وقلت كلامًا وقالت كلامًا لا أذكر منهما شيئاً، إذ كنت أنطق بما لا أعى، وأعى ما لا أنطق به. ولما هدأت سألتها عن أخيها،

فقالت إنــه خرج فى الصباح الباكر، ودعتنــى إلى الدخول. ولكنى اعتذرت وشــكرتها واســتأذنتها فى الذهاب وأنا أنازع نفسى نزاعًا شــديدًا، فألحت علىَّ فى الدخول لأستريح، وألحت معها خلجات قلبى، ولكنى حركت نفسى قسرًا ومضيت فى سبيلى ولم ألتفت إلى ورائى خوف أن تحملنى رجلاى جريًا إلى الباب الذى لم يغلق بعد ذهابى.

ســرت فى طرق جانبولاد. وكان بصرى كلما وقع على شــىء من بيوتهــا أو عطفة من عطفاتها رأيته باهر الحســن، كأننى لم أنظر إليه قط. وخيل إلىَّ أننى أســير فى مســارب جنان خلع عليها ضوء الصبــاح ألوانًا فاتنة. وما زلت أهيم حتى بلغــت قريبًا من دارى، فقلت أذهب إليها لألبس خلعة تيمور، وجررت نفســى جرًّا لأننى كرهت جدران البيوت من أحل جدران ســجنى، ولكنى لمحت عند باب بيتى شــيئًا يشبه أن يكون جمعًا. فترددت وداخلنى الوهم من أن يكون تيمور قد بدا له رأى فبعث بعض جنده من ورائى ليعودوا بى إلــى حيث كنت، وخطر لى أن أطلق ســاقى للريــح وأنجو من المدينة، ولكنــى آثرت أن أتحقق، فتقدمت فــى حذر أتدارى فى ظل البيوت. فلما قربت من الجمع لم ألمح فيه خيلا ولا ريشــاً. بل لاحت لى عمائم بيضــاء وقفاطين فضفاضة. فأطمأننت وذهبت نحو الجمع ثابتًا، حتى بلغت أوله وملت أســأل أقرب الواقفين عن ســر الزحــام. فنظر إلىَّ وما كاد يتبين وجهــى حتى صاح صيحة فرح:

«خواجه نصر الدين! جحا!» وإذا بالسيل الجارف يردد الصيحة، ويتدافع نحوى فى ضجيج وعجيج حتى أحاط بى، وجعل كل من استطاع منهم أن يصل إلى يدى يقبلها، وكل من يصل إلى ثيابى يمسح عليها كفه، ومال بعضهم نحو قدمى يلمسونها، حتى كدت أتزعزع وأسقط لولا أن الزحام لم يترك لى فسحة من فراغ أتزعزع به أو أسقط فيه. وبعد لأى انشق الزحام عن رجل يجاهد فى الوصول إلىَّ، حتى صار عندى وأخذنى بين ذراعيه، وجعل يقبل كتفى وعنقى. وصحت عندما رأيت وجهه: «صديقى!» فقال لى كمال الدين: «لم ندركك فى السجن ولم نجدك فى المسجد فجئنا إلى هنا». فقلت له: «لقد عرجت على بيتك...» وقبل أن أتم كلامى علت صيحة من الجمع الزاخر: «إلى المسجد!» ثم وجدت نفسى أتحرك كما يتحرك العود على التيار القوى. ولما بلغنا المسجد صلينا ركعتين ثم جلست عند العمود الذى كنت من أقبل أجلس عنده. وما كان أشوقنى إلى أن أعاود لذة أحاديثى! وفتح الله علىَّ بما شاء، ولا أدرى كيف تحدثت فقد كان الجنان يملى واللسان يهدر والقلب يجيش مليئًا. وما زلت فى درسى لا أحس للوقت مرًّا حتى أذن للصلاة، فقمنا للجماعة والمسجد يضيق بمن فيه. ثم أردت الانصراف، فأخذت صرة تيمور تحت إبطى وقمت أسير فى مشقة بين الجموع حتى بلغت الباب وهممت بالخروج فإذا بى أرى الأمير صاحب الذنب يقبل علىَّ مترفقًا باسما ويسألنى أن أذهب إلى مولاه.

فقلت له: «أنا متعب وبى حاجة إلى الإغفاء».

فقال باسما: «إن مولاى ينتظرك على الغداء».

فكدت أنصرف عنه بغير جواب لولا أن غمزنى كمال الدين فى ذراعى ففهمت قصده! وسرت إلى جانب الأمير وسار كمال الدين عن يسارى، وأبى الناس إلا أن يشيعونى حتى أبلغ القصر. فساروا فى موكبهم الصاخب يجهرون بذكر الله حتى بلغنا الساحة الفسيحة.

وأشار إلىَّ الرسول أن أدخل. فنظرت إلى كمال الدين ثم نظرت إلى الأمير وقلت له: «أما يدخل معى صديقى»؟

فقال الأمير وهو يحنى ذنبه: «كما تشاء وتقدم راشدًا».

فنظرت إلى الأمير وإلى الصرة التى فى يدى وقلت: ولكنى لم ألبس خلعة البادشاه.

فقال وهو ضجر: «لا بأس عليك فادخل فى ثيابك».

فلم أجد بدًّا من الطاعة، وأعطيته الصرة قائلا: «احفظ لى هذه معك». فمد يده كارهًا وأخذ الصرة وقال لى فى شىء من العنف: «هلم إذًا». فأخذت بيد كمال الدين ثم نظرت إلى الجمع فسلمت عليهم؛ ودعوت لهم بالخير، وانطلقت فى سبيلى إلى ما بين عمد القصر. وكانت دعوات الناس تشق الفضاء وتلاحقنى، حتى دخلت. وشعرت برهبة عندما رأيت مطالع الأبهاء، وفكرت فيما أنا صانع فى حضرة العظماء، فما تعودت أن أجالسهم، وما كنت لأعرف كيف أحدثهم أو أؤاكلهم، ولم أجد من يرشدنى غير صديقى كمال

الدين. فهمست فى أذنه: «كن إلى جانبى فإذا رأيت منى خطأ فاجذب جبتى». فهز رأسه منعمًا، وسرنا حتى دخلنا البهو. وكان فيه خوان فسيح لا يدرك البصر مداه، ولا تحصر العين ما علاه: ألوان من زهر، وصحاف من فضة وذهب، وأكواب من البلور، وفوط من الكتان الناصع، وطنافس من الصوف الوثير، وزينة أخرى لم أر مثلها ولا أعرف أسماءها، وكراسى كأنها رصعت بلؤلؤ، عليها رجال كالتماثيل، يلمع فوقهم الحرير ويفوح من لحاهم العبير، وقد توسط تيمور الصدر فى عمامة ذات زخرفة وجوهر، وثياب وهاجة وحلى متلألئة براقة، وكان ينظر نحوى بعينه وجرحه، من تحت جبهة ناتئة، وحاجبين مائلين صعداً. وكانت لحيته سوداء خفيفة، وفمه أشدق يكاد اللعاب يسيل من جانبه، فوقفت أنظر إليه حينًا وأعجب من قدرة الله الذى جعل هذا سيدًا للناس. وجذبنى كمال الدين من جبتى، فالتفت إليه فوجدته يومئ إلىَّ أن أسير لأجلس حيث كان تيمور يشير. فذهبت إلى الكرسى الذى أشار إليه فى جواره وجذبت كرسيًّا آخر وأشرت إلى كمال الدين أن يجلس عليه. ولم أدر ما الذى حمل صاحبى على أن يجذب جبتى عند ذلك، ولكنه جلس عندما أشار إليه تيمور. وقد كنت أتمثل تيمور كبعض النمور أو الفهود، له أنياب ومخالب وزئير وزمجرة، ولكنى لم أجده فى الحق إلا رجلا أو نصف رجل، فلم ألبث أن حللت عقدة وجهى، وفككت حبسة لسانى، ووجدت

نفسى أكلمه كما أكلم الناس، بل لقد جعل يؤنسنى بقوله، ووجدته يضحك أحيانًا، ويدرك من المعانى ألواناً. ولست أنكر أننى لم ألبث أن نسيت حنقى عليه وسوء ظنى به، وأقبلت عليه طيب النفس منشرحًا. وتلطف بى فكان يمد يده إلىَّ بقطع مختارة من طرف الطعام، وكنت فى الحق جائعاً، فوجدت فى الأكل لذة لم أعهدها ولم أعرفها. وكان حياله طبق فيه فاكهة تأخذ العين بجمال منظرها، ولست أعرف لعلها كانت من بعض ما حمل إليه من أطراف الصين، أو من غوطة دمشق، فمد يده إلى بواحدة كانت لها رائحة لا يشبهها ريح المسك والعنبر، ولا يدانيها لون الورد الأنضر. فرفعتها لأمتع نفسى من شميمها، ثم قضمت منها قضمة كأنها الشهد فى مذاقها، وكدت أقضم منها أخرى لولا أن جذبنى كمال الدين من جبتى، فأمسكت على مضض ونظرت نحوه بمؤخر عينى فهمس لى قائلا: «هدية الملوك لا تؤكل...»

فعجبت من قوله لأن الله إنما خلق هذه الفواكه اللذيذة لنأكلها ونشكره على جزيل نعمه، ولكنى لم أجد حيلة فى نصيحة صاحبى، فهو أعلم بما كان ينبغى لى أن أفعل فى مجالس الملوك. فوضعت الفاكهة فى حجرى وانصرفت إلى بقية طعامى، وشعرت بارتباك كاد يفسد علىَّ غدائى. ولكن تيمور مد يده إلى ورك ديك سمين فقدمها إلىَّ وهو باسم، فأخذتها من يده وشكرته فى أدب مقلدًا حركة من حولى فى تحاياهم، ثم أمسكت الورك بيمينى

فى سكون، ولم أستطع أن أمد يدى إلى شىء آخر فجذبنى كمال الدين من جبتى فالتفت إليه مستفهمًا، ولكنى قبل أن أسمع همسته سمعت تيمور يسألنى: «لم لا تأكل ما أعطيتك؟»

فالتفت إليه فى أدب وقلت معتذرًا: «أيها البادشاه ما كانت هدايا الملوك لتؤكل. وهذا صديقى يجذبنى من جبتى».

فضحك تيمور حتى بدت نواجذه، ومال على ظهره حتى اهتزت لحيته، وأغمضت عينه. وسمعت كمال الدين يهمس: «هذه ورك تؤكل» فرفعت بها يدى فأكلتها وأنا فى حيرة شديدة لا أعرف ماذا يطلع به صاحبى علىَّ مع كل لقمة. ولكن تيمور تبسط فى محادثتى. واشترك من حول المائدة فى التلطف بى، حتى سرى عنى وتركت النظر إلى مشورة صديقى، وأقبلت على المائدة آكل كما يريد الله للناس أن يأكلوا حتى امتلأت، وأمتعت نفسى بكل الطيبات. وقضيت عند تيمور بعد الغداء ساعات فى شجون الحديث، كأننى لم أكن فى صباح ذلك اليوم ملقى فى سجنه.

أيتها الأقدار العجيبة!

وكان الشعراء عند الباب ينتظرون الدخول. فلما صلينا العصر أذن لهم تيمور بالدخول وجلس فى البهو الأعظم وجلس الأمراء والأعيان من حوله فى وقار وقد وضعوا أيديهم على الصدور، وأمالوا رءوسهم على النحور، حتى مست لحاهم أحزمتهم الحريرية أو الذهبية، وأقبل الشعراء واحدًا بعد واحد، وجعلوا يتغنون

بالسيد الأعظم ويصفون جمال هيئته وشدة هيبته، وسيفه ورمحه، وقوة ساعده ورقة قلبه، وكان منظرهم فى الحق مسليًا، إذ كانوا يتمايلون ويهتزون، وينظر كل منهم بمؤخر عينيه إلى الناس ليرى أثر قوله فى الوجوه. مساكين هؤلاء! جعلت كلما سمعت من أحدهم معنى أتأمله لأرى صدقه، فإذا سمعت وصف جمال تيمور نظرت إلى وجهه، وإذا سمعت وصف قوته صوبت بصرى فى جسمه وصعدته، وإذا سمعت وصف سيفه ورمحه التفت إليه لأرى هل معه من ذلك آلة، فلم أجد من كل ذلك إلا كذبًا حتى فرغ الشعر، وهز تيمور رأسه مرتاحًا، وأذن للشعراء أن ينصرفوا. ثم أشار إلى رجل قائم عند رأسه، فانصرف وراءهم، ولا أدرى بم أمره، أبعقابهم على الكذب أم بثوابهم على الرياء، ولأمثال تيمور حرص على مثل هذه الأقوال المنمقة، والصور المخترعة، فهى تستقر فى العقول فلا يزعزعها من بعد شىء، ومثل هذه الأقوال قد زيفت على الناس معنى العظمة، وأفسدت معنى الكرم والعدالة، وجعلت من العقلاء الأبرار عبيدًا فى الأغلال. وليست هذه أول مرة رأيت فيها أثر الألفاظ فى الناس، فقديمًا كان الإنسان أسيرها.

ومهما يكن من الأمر فقد جلست أتأمل ما كان، وأوازن بين المحاسن وأضدادها، ثم تنبهت بعد حين إلى جذبة فى جبتى، فالتفت فإذا كمال الدين يغمزنى بعينه مشيرًا نحو تيمور، فالتفت إليه فوجدته يبسم ويقول: «لقد أبعدتك عنا تأملاتك أيها الشيخ الجليل».

ولمحت فى مظهره ورنين صوته شيئًا كثيرًا من العطف حتى رققت له ولمت نفسى على ظلمى إياه، وعرانى ارتباك فلم أستطع جوابًا.

فقال لى متطلفًا: «كنا نتحدث فى أمر نحب أن نسمع فيه رأيك».

فقلت وقد سرى عنى: «فيم كان الحديث؟»

فقال: «كنا نتمنى لو استطاع الإنسان أن يعرف حقيقة قدره فى أعين الناس».

فقلت مبادرًا: «هذا شىء يسير. لقد عرفت قدرى فى أعين الناس دائماً».

فقال باسمًا: «ولكنى جربت ذلك فلم أجده كما وجدته».

فقلت له: «لعل الناس يخشونك، أمِّنهم خوفك تعرف ما تشاء أن تعرفه».

فضحك وقال فى لهجة التحدى: «أتقدر أن تخبرنى كم أساوى من المال؟»

فقلت ناظرًا إلى من حولى فى ارتباك: «أظن أن هؤلاء السادة أقدر منى على جواب مثل هذا السؤال».

فقال ضاحكًا: «لم أجد عندهم ما يشفينى. قل ولا تخش شيئًا».

فنظرت إليه مترددًا، ثم تجرأت وجعلت أفحصه ببصرى وقلت:

– لا أظنك تساوى أقل من ألف دينار.

فضحك حتى استلقى على ظهره وضحك من معه وراءه، ثم قال:

– إنك لم تبلغ فى جوابك شيئًا. إن ملابسى وحدها تساوى ذلك المقدار من الدنانير.

فقلت وقد امتلأت سـرورًا من صدق حدسى: «لقد صدق ظنى إذا. فما كنت أنظر فى تقدير ثمنك إلا إلى هذه الملابس».

فعاد إلى الضحك حتى كاد نفسـه ينقطع. وضحك أصحابه مثله حتى لـم يبق فى المجلس أحد لا يضحك غيـرى أنا وكمال الدين. ونحن ننظر إليهم ونتعجب مما يضحكهم.

وبعد حين هدأ تيمور وظهر عليه النشاط وانشرح صدره، ثم نظر إلىَّ جادًّا وقال: «أيها الشيخ المبارك، إننا نحب أن نسمع وعظك».

فوقعـت كلمته علىَّ وقعًـا ثقيلا، وزادت حيرتـى عندما نظرت حولـى، ورأيت من كان هنـاك من حراس وأتباع ومن لحى شـهباء وعمائـم مكورة بيضاء. فماذا كان لى أن أقول بين هؤلاء؟ وما خرجت من سجنى لكى أعظ تيمور، ولعل تلك العظة تعيدنى إلى ما كنت فيه من ظلام جحرى. وترددت طويلا وأطرقت حائرًا وكدت أنطق معتذرًا، ولكنى لم أجد لنفسـى عذرًا. وسـمعت تيمور يقول لى: «لقد سمعت عن ورعك وعلمك فأحببت أن أراك وأن أسمعك، فلا تحرمنا من بركة مواعظك». فشـعرت كأن روحًا جديدًا يسرى فى أعماق قلبى، ونسيت إشـفاقى وخوفى، وقمت كأننى أنشـط من عقال. فأحسست جذبة فى طرف جبتى، ولكنى لـم أبال صاحبى، وانطلقت أتكلم، فقلت ناظراً إلى تيمور: «لا تصدق حرفاً واحداً مما يقوله هؤلاء الذين يمدحونك، فإنهم إنما يبيعون لك سلعة يعرفون أنك تحبها».

ومـا نطقت بهذه الكلمات حتى رأيت الجمـع ينتفض كأن نارًا لذعتهـم، ورأيت لحاهم تخفق، ونظروا إلىَّ ثـم نظروا إلى تيمور ليـروا ما هو صانع بـى، ولكنى لم أنظر إلىَّ أحد وقلت مسـتمرًا: «وإذا أردت أن تسمع عظة فلا شيء يعظك خير من الحقيقة، فتأمل وفكر والتمسها. لقد خلقك الله كما خلق من قبلك وكما هو خالق من بعدك، وجعل لك أيامًا على هذه الأرض لن تعيش أكثر منها. ولقد كنت قبل أن تخلق نسيًا منسيًّا، وستمضى بعد حين وتذهب عن هذه الأرض لا تأخذ منها شـيئًا، فلا تجعل هـذه الأيام القصيرة تغطى على الحقيقة الخالدة، ولا تجعل هؤلاءالذين يمدحونك يسـخرون من حكمتك. قـد خلقك الله كما خلق هؤلاء النـاس جميعًا، وجعل لكم الحياة ميدانًا وامتحانًا لكى تؤدوا الواجب الذى ألقاه جل وعلا على الإنسـانية عندما خلقها منذ قـال: «وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون». وما عبادته إلا السعى إلى الكمال الذى قدره للخلق، وجعلـه قصد حياتهـم. وكان من قبلـك ملوك بلغوا من السـلطان ما بلغت، ثـم أضلتهم الحياة فمضوا عنها وصاروا نسـيًا منسـيًّا. فهم اليوم صور وأسـماء مجردة معطلة من كل مجد وهيبة، لا فرق فيها بين فرعون وبين العبد الذى كان يسـجد عند قدميه. فالملوك الذين لم يخلفوا إلا آثار العسف والطغيان لم يكونوا أهلا للإنسانية بـل كانت حياتهم على الأرض لعنـه لأنهم جحدوا الله الذى وهب لهـم الحياة. كان المجد عند الطغاة أن يذلوا الأعزاء، وأن يسـفكوا

الدماء، وأن يجعلوا أهل الأرض عبيدًا ليتملقوا كبرياءهم وغرورهم. فلما مـرت أيامهم ذهبوا بعد أن دمغهم اليقين، فعلموا ولات حين علم أن كل ما اضطربوا فيه لم يكن سـوى غرور من الغرور، وليس فيه شـيء سوى الغرور، وبقيت الأرض بعدهم باسمة كأنها تسخر من جهالتهم العمياء.

«لقد مررت يومًا بغابة، ورأيت فيها تنازع الحيوان والحشـر، وهناك استطعت أن أدرك الرسالة السامية التى أعدها الله للإنسان، أن يعيـش على قانون الرحمة والحـب لا على القانون الطليق الذى يحكـم الغابة. ولكنـى كلما تأملت بدا لى أن من بنى الإنسـان من يريدون أن يطفئوا نور الله، وأن يمسـخوا الرسالة السامية ويعودوا إلى قانون الغابة طمعًا فيما يصيبونه من وراء ذلك من مجد حيوانى وحشـى. وهؤلاء ليسوا سوى نكسة من نكسـات الحياة، وفلتة من فلتـات أقدام الإنسـانية فى صعودها نحو العـلا، الأرض لا تضيق بالناس جميعًا إذا أرادوا أن يعيشـوا فيها لما أراد الله لهم، بل هى تتسـع للجميع وتفتح ذراعيها للجميع، وتدعو الجميع إلى الحياة السـعيدة. فهنيئًا لمن استطاع أن يكون من رسل الرحمة. ومن أكبر الإنسانية وأعظمها، فلم يسفك دماءها، ولم يدنس كرامتها، وسعى فى تحقيق الخير، وأعان على تحقيق السعادة للجميع».

ولما انتهيت إلى آخر قولى تنفسـت نفسًـا عميقًا وشعرت بأن حملا أزيح عن كاهلى، ونظرت حولى حتى وقعت عينى على تيمور.

وما كان أشد عجبى إذ رأيته يبكى. نعم كان يبكى وهو مطرق والدموع تنحدر على لحيته. وكان الجمع كله مطرقًا يشارك فى البكاء، إلا صديقى كمال الدين فقد كان ينظر إلىَّ مأخوذًا وصدره يعلو ويهبط فى اضطراب. فلما رآنى قد أمسكت قام نحوى ولم يعبأ بأحد، حتى صار أمامى وضمنى إلى صدره، قائلا فى صوت متهدج: «لقد عرفت أنك لن تخشى فى الحق أحداً. وأحمد الله إذ لم تطعنى عندما جذبتك من جبتك».

ولما عزمت على الخروج بعد ذلك صافحنى تيمور متأثرًا، وأمر لى بخلعة أخرى، فذهبت إلى دارى عند الغروب بخلعتين كريمتين من البادشاه كأننى لم أكن عند شروق الشمس ملقى فى سجنه. فسبحانك يا الله!.

■■■

٢١

سمعت فى اليوم السابع بعد خروجى من السجن حركة فى جانبولاد، وكنت ذاهباً إلى المسجد الذى جعلنى تيمور إمامًا له، وكانت ضجة عظيمة حسبت أنها هيعة حرب أو حدث من الأحداث. كان الناس يتواثبون ويتسابقون فى هياج ويقولون «خرج تيمور».

خرج تيمور بكل جيشه وكل أمرائه عائدًا إلى سمرقند، فلم يبق من جيشه أحد فى جانبولاد، وخرج معه كثير من أصحاب الأعلام وحملوا قدورهم معهم، لأنهم لا يقدرون على مفارقتها أو الحياة من غيرها، فهى عندهم أعز من الولد وأحب من الوطن. وخرجت مسرعًا لأنظر إلى الموكب الضخم، ولم أستطع مغالبة نفسى فى رغبتها، فرأيت تيمور وهو خارج. وسلمت عليه ولا أنكر أننى أحسست فى قلبى عطفًا عليه. مسكين هو ما كان أفقره إلى السلام! ورأيت السيد القاضى صاحب السيف يسير وراءه فى مؤخرة الجيش على بغلة حمراء، وكانت قدوره الخمسون محملة على قافلة من الإبل تسير فى آثاره. وكنت قريبًا منه على جانب الطريق فوقعت عينى عليه وتبسمت له وأحسست له رقة. مسكين هو كذلك. فقد كان الحزن باديًا عليه، ولما رآنى أدار وجهه ولم يرد على ابتسامتى، ثم مضى

الموكب حتى خرج من المدينـــة. وهكذا خلت جانبولاد من تيمور بين عشية وضحايا!

وبعـــد يوم واحد عاد الســـلطان علاء الدين إلـــى ملكه ونزل فى قصره، ورجع الأمر إلى مســـتقره. وكان لعودته يوم مشهود أخذت فيه المدينة زينتها ففرشـــت لـــه الأرض بالطنافـــس، ورفعت له الأعلام فوق البيوت – أعلام تنم عما فى القلوب من بشـــر وليســـت مما ينـــم عما فى القدور من ذهب. وقد اختار الســـلطان علاء الدين أن يقيـــم فى جانبولاد. ولعلـــه أراد أن يزيل أثر تيمور منها. فرفع رايتـــه على قلعتها، وأظهر مجده فى مقرها وســـاحتها. فقد طالما شقيت قلعتها ببنود تيمور، وطالما ضاقت ساحتها بجنده المغرور. وازدحم الناس على جانبى الشـــارع الأعظـــم. وخرجت فيمن خرج وكأنى عدت فى طربى إلى عهد الصبا، ولما مر موكب الســـلطان فى خيله ورجله أقبل ركب الحريم فى هوادجه وســـتوره، من عجيب الاتفاق أن مر بى هودج باهر فى ســـتور من الحرير والجواهر فلما صار تلقائى خفقت ســـتوره خفقة فماذا رأيـــت؟ إنها علية بعينها وجبينها وشـــعرها ونحرها ومعصمها وأناملها. ولكن أى فرق بين ما رأيت منها بعينى عند ذلك وما كنت أراه منها فى خيالى من قبل فى صباحى ومســـائى؟ أأنا الذى تبدلت وتغيرت أم هى التى خلقت خلقًا جديدًا؟ رأيت فى نظرة خاطفة عينًا غير العين التى سحرتنى وجبينًا غير الجبين الذى أوحى إلىَّ بالمعانى.

أيــن هى من «نجوى» الصالحة الباسـمة ذات العينين الناطقتين الوديعتين. أين هى من «نجوى» التى لا أبرح أراها فى لمعة الشمس وفى ضوء القمر وفى فم الزهرة وفى قطرات الندى؟

أهــى علية التى تغيــرت أم هو قلبى الذى يحــس وعينى التى ترى؟ لقد كنت ما حييت أحب أن أكشــف عن قرارتى وأتعرف ما خفى من عيوبى. ولست أبرئ نفسى ولا أزكيها فأنا كما خلقنى الله ضعيف لا أدعى قوة سقيم لا أدعى سلامة. ولكنى أصف ما كان منى غفر الله لى وتجاوز عن ضعفى وسقمى.

ولما عــدت إلى بيتى بعد انصراف المواكــب عادنى وجد غلب علــىَّ لم أســتطع إدراك علته ولــم أقو على صرفــه أو الاحتيال فى مغالبتــه. فــإذا بى أحس عزوفًا عن الناس فكنــت لا أكاد أطيق مع أحد حديثًا. وبقيت فى الدار لا أخرج إلا إلى صلاتى ثم أعود إليها فــلا أجد ما يفرج همى إلا البكاء. وكان كمال الدين يزورنى كل يوم ساعة، فأكاد أضيق به وأتحرج أن يرى وجومى وبكائى. فإن دعانى إلى زيارتــه تعللت له بالعلل حتى ينصرف عنــى. ولكنه جاءنى يومًــا وجعل يحملنــى على الخروج وكلما تخلصــت بعلة حاورنى فيها وجادلنــى حتى قال لى كلمة هزتنى وزعزعت عزمى. قال إن أهــل جانبولاد يتحدثون عنى بما يــكاد يبعث فيهم فتنة، يقولون إننى أنا أخرجــت تيمور من الأرض بكرامتــى، وإننى أنا هزمته

بمقالتى. وقالوا إن السلطان ما اختار الإقامة فى جانبولاد إلا ليكون قريبًا منى فتحصل له بركة صلواتى ودعواتى.

فما سمعت قوله حتى دهشت وحزنت. وسألت الله أن يغفر لى ولا يؤاخذنى بما قالوا. هكذا الناس لا يرضيهم إلا الإغراق والغلو. ولو علموا الحق لعرفوا أن الله لم يخلق من البشر شياطين مردة ولا ملائكة بررة. إن الله خلقنا بشرًا نقارف الخير والشر ويتمزج فينا الضعف والقوة. وما أجدرنا أن نفيض بالحب والعفو وأن نعرف أننا أبدًا فقراء إلى الحب والعفو.

وحملنى قول صديقى أن أخرج من عزلتى وأستغفر الله أن أكون قد أثرت فى الناس هذه الفتنة بكلمتى أو إشارتى. وخرجت منذ ذلك اليوم إلى المسجد فعاودت فيه دروسى لعلى أدخل إلى قلوب الناس شعاعًا من الحق يردهم عن هذا البهتان. بل لقد تعمدت أن أظهر فيهم ببعض ما أكره، وأعلن بعض ما أنكر لعلهم يدركون أننى بشر أزل وأخطئ، فإذا اجتهدت فأنا إنسان ضعيف وإذا علمتهم فأنا مثلهم بشر سخيف؛ ولكنهم كانوا يرون آثامى تجليًا وحماقاتى رموزًا حتى عجزت عن صرفهم عن اعتقادهم وهممت بالهجرة خوفًا من تضليلهم. ولكن كمال الدين كان كالصخرة ثابتًا. فنصحنى أن أواصل دروسى فإن العلم وحده يهدى النفوس ويهذبها.

وكنت فى دارى ذات مساء فسمعت طارقًا يدق الباب وكنت لم أر صديقى كمال الدين فى ذلك اليوم، فوقع فى نفسى أن يكون

هو الطارق، فأسرعت لأفتح له، ولكنى دهشت عندما رأيت رجلا لا أعرفه، وكان رجلا حسن الوجه واللحية، عليه هيئة العلماء، وله سمت الصالحين. فرحبت به ورجوته أن يدخل. فاعتذر قائلا: «لعلى قطعت عليك تسبيحك أيها الشيخ الصالح، فأرجو منك عفوا» فأعدت عليه الترحيب ودعوته للدخول فأبى قائلا: «مولاى السلطان قد بعثنى فى طلبك».

ولا حاجة بى إلى إطالة الحديث فى وصف ما دار بينى وبينه فقد كان لا بد لى من رؤية السلطان. وكان علاء الدين عندى كريمًا جليل القدر، فهو سلطان وطنى، وعرفته الملك الصالح البر والعالم الورع. فلم أتردد طويلا فى الذهاب إليه مع كل ما كان فى نفسى من العزوف عن غرور الحياة.

ولما بلغت القصر ودخلت فى رحابه، وانتهيت إلى مجلس السلطان، رأيته فى حلقة من العلماء والحكماء. فانشرح صدرى لمنظره إذ لا شىء أجمل من الملوك إذا أحاطت بهم مثل تلك الهالة النبيلة. قيل إن حكيم اليونان سئل عن الحكم يوماً فقال إنه لا ينبغى أن يحكم الناس سوى الفلاسفة. ولو تأمل العاقل هذا القول لوجدنا أنه الحق عينه. ولو أنصف الناس لأجمعوا على تجربته، فإن الدول كانت منذ القدم لا تدين إلا لأولى القوة، حتى كاد الناس يعتقدون أن الحكم وقف على أصحاب السيف لا يجمل بأحد غيرهم أن يقبض على صولجانه. بل لقد قالوا فى بعض الأمثال إن الله

ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن. ولكنهم لم يجربوا مرة إقامة دولة على حكم الفلاسفة. وأغلب ظنى أنهم لو جربوا مثل ذلك الحكم لاستساغوه وأقبلوا عليه، ولم يرضوا به بديلا. فإن الفلاسفة يعرفون ضعف البشرية، وهذا يكفل لحكمهم الرحمة. ويعرفون كرامة الإنسانية، وهذا يكفل لهم التطلع والتسامى. ويعرفون معنى الفناء، وهذا يكفل لهم الاعتدال.

وكانت ليلة مباركة تلك الليلة التى قضيتها فى مجلس علاء الدين، لم أنصرف عنه بخلعة، ولم أذق عنده طعامًا، ولكنى عدت من عنده بقلب عامر بالمعانى. ما أجمل الملوك إذا أحاط بهم الحكماء!

■■■

٢٢

لـم تفارقنى وساوسـى منذ ليـال وكنت أحـس كأننى أضطرب فـى بحر لجى موج مـن فوقه موج من فوقه سـحاب. كانت صورة علية فى تلك الليالـى لا تبرح ماثلة أمام عينى ناظرة إلىَّ بجبينها العالى وأنفها الأشم وعينها المتكبرة كأنها تسألنى «من أنت؟» لقد كانـت تلك الصورة من قبل تبدو لـى عاطفة رحيمة تأخذ بيدى إذا ما اشـتدت بى الحيرة وتصعد بى إلى حيث الصفاء والسـلام، فما الـذى بدل نظرتها؟ ولكن ما بالى أتحدث عن صورة علية ابنة علاء الدين كأنها شخص له جسد وفكر وروح يحدثنى ويتغير فى نظرته نحوى؟ أليس هذا من الخبـل والتخليط؟ أكانت فى عقلى لوثة هى التـى خيلت إلى ذلك الوهم الذى تسـلط على كلّ هذه المدة الطويلة منذ وقعت عينى عليها فى ماهوش؟

كنـت سـابحًا فى هذا الخضـم المائج عندما طرق بابى رسـول السـلطان ودعانى إلى حضرة مولاه. وكان السلطان على عادته نبيلا كريماً، فما زال يكرمنى فى الحديث ويقبل علىَّ بالترحيب ويبالغ فـى التلطف بـى – عفا الله عنه – فيسـألنى الدعـاء ويتلمس منى البركة حتى كاد الغرور يدخل إلى قلبى، وأى إنسـان لا يتدسـس إلى قلبه الغرور؟ لقد أوشـكت أن أصدق السـلطان وأومن بما يقوله

أهل جانبولاد فأظن فى نفسى القرب من الله. أعوذ بالله من الغرور، فأنا أعرف الخلق بما ينطوى عليه صدرى من نوازع ضعف الإنسان ودوافع طباع الحيوان. فلما خلوت إلى نفسى بعد ذلك المجلس تركت العنان للبكاء لعلى أنال عفو الله عما داخلنى من الغرور. وقد فاجأنى السلطان فى ذلك المجلس بأمر ما كان يخطر لى ببال فقد عرض على أن أكون له وزيرًا أدبر له ملكه وأشير عليه بما ينبغى أن يكون عليه حكمه. وما كدت أسمع ذلك الحديث حتى كاد يغلبنى الضحك على الحياء. فإنه عندما طلب منى الدعاء دعوت الله له ولا حرج علىَّ إذا اتجهت إلى الله بالدعاء، فإن الله يقبل الدعوة من خلقه ولا يقيم حجابًا بينه وبين عباده.

ولكنه عند ما سألنى أن أدبر له الملك دار بى رأسى فأوشكت أن أنفلت من وعيى. ولولا أنه السلطان العظيم فى مجلسه الرهيب لانفجرت ضاحكًا ساخرًا. أيكون جحا وزيرًا؟ قد أحسن السخرية من الحياة كلما رأيت فيها حماقة أو سخافة ولكنى إذا ضحكت من السخف لم يخف عنى أننى شريك لهؤلاء الذين أثاروا الضحك فى نفسى. أأكون أنا وزير السلطان وأزعم أننى أستطيع أن أبلغ قرار الحكمة والعدالة؟ وهل أحمل على عاتقى أوزار العمال وأثقال المظالم التى ترتكب باسمى؟ أكون أنا وزير السلطان لأحمل الناس على أن يعيشوا معى فى عالمى؟

كيف أستطيع أن أدبر أمور الخلق وأنا أنظر إلى الحياة بهاتين العينين اللتين وهبهما الله لى. إن الحق عندى باطل عند أكثرهم

والعدل عندى جور فى مذهبهم. ولست أقدر على أن أخلق نفسى خلقًا جديدًا وأقلب كل معايير القيم عندى حتى أصلح لأن أحكم بين الناس على عرفهم الذى يرتضونه. فهل يستطيع السلطان أن يبدل طبعى؟ أو يستطيع أن يأتى لى بناسٍ آخرين يصلحون لحكمى؟ إن الناس لا يعرفون إلا العنف ولا يفهمون من الحاكم إلا القوة والقسر. وهم لا يخرجون عن أن يكونوا فى إحدى حالتين إما أن يكونوا فرائس تتخذ طعامًا أو مفترسين يتخذون من غيرهم طعامًا. ولقد حاولت أن أعلمهم ولكن التعليم لا يجدى إلا بعد أن يؤتى الثمار ويحرك القلوب ويفتح العقول ويهذب النفوس. وهيهات أن يكون ذلك إلا بعد حين طويل. لقد حاول موسى أن يعلم قومه احتمال أعباء الحرية فأذاقوه مرارة الحنق والألم حتى فنى جيل منهم بعد جيل. ولا سبيل إلى استقامة الحكم حتى يستعد الناس لتحمل أمانة السلام والكرامة والعدل فى غير عنف ولا قهر. ولو كان أهل جانبولاد كلهم مثل تلميذى كمال الدين أو تلميذتى «نجوى» لهان الأمر ولكن أنى لى أن أجد فى الناس مثل هذين؟ ما لقلبى يخفق عند ما يخطر عليه ذكر «نجوى»؟ مالى كلما صرفت نفسى عن التفكير فيها لا يلبث أن يعود مكرهًا إليها.

أأنا أحبها؟ هل هذا الذى أحسه هو ما يسميه الناس حبًّا؟ إننى أطرب كلما مرت صورتها فى خاطرى فكأن الحياة كلها تبسم

وكأن الأفلاك من فوقى تغنى. أأخادع نفسى وأوهمها بأن هذا غير ما يسميه الناس حبًّا؟ وفيم هذا الخداع إذا كان هو الحب حقًّا؟ لقد سمعت عن المحبين وقرأت عن أخبارهم ما يجعلنى أسىء الظن بنفسى. وإن قلبى يرف إذا رأيتها، وأصعد فى سماء الملائكة إذا سمعت صوتها وأجد فى حديثها سلامًا مثلما يتحدث فيما بينهم أصحاب اليمين. فهل هكذا كان المحبون قبلى؟ وإنى لأقنع منها بالنظرة لا أطيلها، وبالكلمة القصيرة لا تعيدها، ويسرى فى البشر إذا حييتها فهل كان هكذا المحبون قبلى؟ ولكنى لست أحس ذلك الشوق المحرق ولا ذلك القلق المؤلم الذى يصف الشعراء أثره فى سقم أبدانهم. أيكون ما أحسه مع كل ذلك حبًّا؟

لقد شردت بى الأفكار عما كنت فيه فإن السلطان أرادنى على أن أكون وزيرًا فكدت أضحك لولا أن تماسكت قسرًا. وأطرقت صامتًا حتى أعاد على قوله فاشتدت حيرتى ولم أجد من الأمر مخرجًا إلا أن استأذنته أن أتريث فى جوابى. وعدت إلى دارى فى أشد الحيرة أقلب صور الناس فى ذهنى وأتصور ما يكون حالى إذا قبلت أن أكون وزيرًا.

أأقيم الحجاب على بابى أم آذن للناس ولا أقيم حجابًا؟ وهل أغير لهم صورتى التى ألفوها فأعبس وأشمخ وأنقبض أم أفيض عليهم بما فى قلبى وأفتح لهم أبواب صدرى وأضحك وأخلط أحيانًا فى حديثى؟

ولم تطل بى الحيرة فإنى عزمت على أن أرسل إلى السلطان معتذرًا.

ولكنـــى ما كدت أخرج من حيرتى حتى طلعت على حيرة أشـد ظلامًا فقد طرق الباب رســول آخر جاء يشتد فى أثرى. فلما استقر به المجلس همس فى أذنى: أبشر بالعلا والمجد يا جحا.

فعجبت ماذا يكون هذا المجد الذى جاء يحمله إلى وحسبت أنه قد جاءنى يطلب عملا منذ سمع أن السلطان يريد أن يتخذنى وزيرًا. فهذا ما تعودته من الناس لا يكادون يســمعون أن سوط الحكم صار إلى يد رجل حتى يســارعوا إليه ليســتمدوا منه أسواطاً. نعم، فما هى إلا أسواط يستمدونها ليلهبوا بها الخلق أو كما يقولون ليحكموا الناس بها.

ونظــرت إلى الرجل لحظة وكــدت أصيح ضاحكًا فى وجهه لولا أنه كان فى بيتى... ولم يمهلنى الرجل فأعاد هامسًا:

«إن السلطان يريد أن يقربك».

فقلت له:

– بارك الله فى مولاى إنه يبالغ فى تقريبى.

فقال باسما فى خبث:

– سوف تكون صهر السلطان يا جحا.

ففتحت عينى من الدهشــة وحسبت الرجل يعبث بى أو يسخر منى.

فلما رأى دهشتى قال جادًا.

– لقد أرسلنى مولاى إليك لأعرض عليك الزواج من ابنته.

فصحت ولم أتمالك نفسى:

– علية!

فقال الرجل عاتبًا:

– علية! من علية؟ فالسلطان لم يسمها علية. هى ورد خان سليلة السلاطين.

ولم أتذكر إلا فى تلك اللحظة أننى لم أعرف اسم ابنة علاء الدين. لقد كنت أدعوها علية وأناجيها وأصاحبها فى خيالى على أنها علية وأرتل التسبيح على صورتها التى سميتها علية. ولكنى لم أسمع حقًا من قبل ماذا كان اسمها. لم أعرف إلا عند ذلك أن علية تلك لم تكن إلا صورة أخرى عرفتها فى شبابى وخلطتها بالصورة الأخرى حتى صارتا عندى خيالا واحداً. أف لنفسى وويح لقلبى! لقد عشت ما عشت فى عالم خصصت به نفسى ولم أفرق فيه بين الأشباح والأشياء ولا عيب على الناس إذا هم رمونى بالتخليط.

وسمعت الرجل يعيد قائلا:

– أما سمعت بشراى يا جحا؟

كان ينظر إلىَّ متعجبًا. ولا لوم عليه إذا تعجب منى فقد كنت جديرًا بالعجب لصمتى ووجومى واصفرار وجهى وزيغ بصرى. لقد كان الرجل ينتظر أن أثب راقصًا أخلع عمامتى فرحًا وأغنى مرحًا. ولكنى لم أفعل بل بقيت فى دهشتى صامتًا.

وبعد لأى استطعت أن أجمع نفسى فقلت مضطربًا:

– هذا شرف لم أكن به جديراً.

فربت الرجل على كتفى وقال باسما:

– ليس عليك من بأس فى دهشتك فإن السعادة قد تذهل الناس كما تذهلهم النكبات.

وكأنه قد فهم من حالى وقولى أننى قد قبلت فقام وحيانى منحنيًا. ثم قبل الأرض عند الباب وتركنى قائمًا.

ولم أذق طعم النوم فى تلك الليلة بعد انصراف الرجل فإنى ما كدت أفيق من صدمة الوزارة حتى صدمت بخطبة ابنة السلطان.

عجبًا لنفسى! أما كنت أتحدث فى ماهوش عن علية؟ فما الذى غير نفسى منذ رأيت وردخان؟ أهو القدر يسخر منى؟ أم هذا كله خيال أهذى فيه كما يهذى المحموم فى بحرانه؟

ولمست وجهى بيدى فوجدته يتقد، وعضضت بنانى فآلمنى حتى كدت أصيح جزعًا. ولكن ذلك كله لم يزل عنى الشك وبقيت أحسب أننى كنت حالمًا. ألا يراجع الإنسان نفسه وهو يحلم فيخيل إليه أنه يعض بنانه أو يحرك لسانه أو يلمس وجهه حتى إذا طلع الصباح وجد أن ذلك كله كان حلماً؟ أين الحد الذى يفرق بين الأحلام والحقائق؟

وقلت أخرج إلى الناس أسألهم لعل ذلك يهدينى. فخرجت أسير نحو بيت صديقى كمال الدين فلما طرقت الباب سمعت الصوت الذى يهزنى. ولما حييت «نجوى» سألت نفسى مرة أخرى: أأنا فى يقظة أم لا أزال أهيم مع أشباحى؟. وسمعتها ترحب بى فكدت

أثب إليها وآخذها بين ذراعى لأرى إذا كنت أرى أمامى جسدًا أم كل ما أراه صورًا وأوهامًا.

ولكنى تماسكت وقلت إن ذلك لا يجدينى شيئًا، فلا سبيل إلى برهان قاطع يذهب عنى شكوكى. وما الذى يدلنا معاشر الأحياء على أن حياتنا هذه كلها ليست سوى صور تمر علينا فى حلم مستمر فى أوهامنا.

ولاحظت «نجوى» العزيزة اضطرابى فنادت أخاها، فأقبل كمال الدين علينا فحيا باسما ومد يده إلىَّ فسألته مبادراً:

– أتستطيع يا صديقى أن تخلو معى ساعة؟

فانصرفت «نجوى» وقد علت وجهها حمرة زادتها حسناً. فلما صرنا وحيدين قلت له هامسًا:

– أأنا أراك حقًّا؟ أنحن فى يقظة يا صديقى؟ أسمعنى صوتك لعله يهدينى. ولكنى ما جدوى ذلك فلعل الذى يجيبنى ما هو إلا خيال! وما أزال هائمًا فى أحلامى.

فظهر على كمال الدين شىء من الارتياع وأجاب متماسكًا:

– لا بأس عليك يا سيدى.

فقصصت عليه قصة السلطان منذ عرض علىَّ الوزارة إلى أن أرسل إلىَّ يعرض علىَّ زواج ابنته وقلت آخر الأمر:

– ولست أجد سبيلا إلى أن أومن أننى لست حالمًا. فترفق كمال الدين بى وجعل ينصرف بى فى شجون الأحاديث فداخلنى ارتياح أعاد إلىَّ اطمئنانى وبدا لى أننى قد أكون فى يقظة حقًّا.

وخطرت لى عند ذلك فكـرة كأنها كانت من إلهام الحق. فقلت مسرعاً حتى لا أجد فرصة للتردد.

– أتزوجنى «نجوى»؟

فنظر كمال الدين إلىَّ فى دهشـة ثم رفـع يده فربت على كتفى وقال:

– لا بأس عليك يا سيدى؟ ألا تحب أن تشرب القهوة معى؟

فقلت له جادًّا:

– إذا كنـت تعرف أننى لسـت فـى منام فأجب عن سـؤالى: أتزوجنى «نجوى»؟

فأطرق كمال الدين مليًّا ثم قال:

– لو كان الأمر لى لقضيت فيه راضيًا.

فقلت مبادرًا:

– وهل كنت لأرضى برأيك أنت؟ ألا تسأل «نجوى»؟

فقام كمال الدين ولا يزال فى دهشـة من المفاجأة وتركنى أدير فى نفسى كل ما مر بى.

وعـادت إلىَّ صور شـتى تسـاورنى حتى أعادت الشـكوك إلى نفسـى. أأنـا فى يقظة حقًّا؟ لـم تكن علية إلا خيـالا يخادعنى به قلبى. ولكن «نجوى» ألم تكن تحدثنى وتناقشـنى وأراها قطعة من الحياة أمام عينى؟ كانت «نجوى» أمامى فتاة سـاذجة ليس حولها بريق ولا زخرف. أحدثها فتدرك وأحس فتستجيب.

أتكون هى الأخرى من صناعة خيالى؟

وأقبل كمال الدين راجعاً يبدو عليه شىء من القلق.

فقلت له مبادراً:

- لا بأس عليك إذا هى لم ترض بى. إنها عندى...

ولكنه قاطعنى قائلا:

- معاذ الله يا سيدى أن يخيب ظنك. ولكنى أسأل نفسى ألا تكون...

فأدركت أنه يشفق على أن أكون قد أخطأت فى اختيارى. لك الله يا صديقى!

فقلت له: «اجلس إلى جانبى فإنى محدثك حديثًا».

ثم قلت له، وكان صوتى متهدجًا:

- كنت فى شبابى أرى قمم الجبال من بعيد تغطيها الثلوج الشهباء وأرى أشعة الشمس تصبغها عند الغروب وعند الشروق فتلونها ألوانًا ساحرة تخلب النظر والفؤاد. وكم تمثلتها وتصورت ما فيها من بهاء وكنت أحس فى نفسى دافعًا لا يقاوم يدفعنى إلى توقل الصخور والصعود إلى تلك القمم الساحرة.

وهكذا قضيت زمنًا أهيم فى خيالى وأنا ناظر نحوها وقلبى متعلق بالتسامى إليها. ولم أستطع أن أقاوم نفسى فخرجت أسعى لأبلغها. وكنت أتصور ما تخبئه لى تلك القمم اللامعة من كنوز وصور باهرة ومسارح ساحرة فسافرت سفرًا مضنيًا تمزقت فيه أعضائى وخارت فيه قوای من نضال الصخور ومحاورة ثنايا

الشعاب. وكدت أهلك جوعًا وبردًا فلم يمسكنى إلا الأمل الذى كان يملأ قلبى. وكنت كلما ضجرت وكاد الضعف يغلبنى استندت إلى الأمانى التى تجيش فى صدرى فتدفعنى وتزيل آلامى. كنت دائمًا أنظر إلى القمة وأمنى النفس بما لا يزال أمامى. وأخيرًا بلغت القمة وسقطت من الإعياء وخانتنى أنفاسى. ثم كادت الخيبة تقتلنى. ماذا رأيت هناك؟ تلفت حولى فلم أر إلا صخورًا مثل الصخور وكهوفًا مثل ما مررت به فى صعودى. وكانت القمة جرداء صماء كالحة باردة. فسألت نفسى أين البهاء والرونق؟ وأين الألوان الزاهية والأضواء الباهرة؟.

لقد كادت الخيبة تقتلنى. وعدت أدراجى أجر قدمى وأجادل غرورى حتى عدت إلى السهل ونظرت إلى القمة وأنا أتهالك على المروج الخضراء. فرأيت القمة لا تزال تلمع وتصبغها الألوان الساحرة كما كانت من قبل تصبغها. فصحت فى حنق: أيتها القمم الساخرة!

ولقد كان هذا هو شعورى عندما فارقنى رسول السلطان وجلست إلى نفسى أراجعها.

ثم قلت فى لهفة: أرضيت «نجوى» بزواجى؟

فقال كمال الدين مطرقاً:

- لقد لمحت السعادة عليها.

فقلت: أتكون وكيلها؟

فقال كمال الدين: قد زوجتكها.

ومد إلىَّ يده فخطفتها وقلبى يرفرف كالطائر فى قفصه وقمت مسرعاً لم أتكلم بكلمة حتى بلغت دارى لا أتلفت إلى يمين ولا إلى شمال وقضيت سائر الليلة أصلى وأناجى ربى.

ولما أصبح الصباح ذهبت إلى القصر ودخلت بين عمده فانفرج لى صف الحراس ودخلت إلى البهو حتى بلغت مجلس السلطان.

وهناك لقينى علاء الدين وقرب إليه مكانى وغمرنى ببشاشته وحيانى. ولما استقر بى المجلس واستأنست وهدأ جأشى وذهب عنى حيائى أفضيت إليه بما استقر عليه رأيى واعتمدت على الله فلم أخف عنه كلمة تجيش فى صدرى.

وقد سمع قولى هادئًا عاطفًا، حتى إذا فرغت من حديثى سألنى الدعاء وقدمنى لأكون إمامًا فى الصلاة.

وهأنذا اليوم فى جانبولاد وسائر قصتى معروف لا يخفى على أحد، فقد صرت إمام السلطان أذهب كل يوم إلى مسجده الذى بناه ليكون لى مدرسة أعلم فيه الناس مما علمنى ربى، فلعلهم يومًا يبلغون ما يحب لهم علاء الدين من خير فى الأولى والآخرة. وقد وهب لى السلطان بيتًا أعيش فيه مع «نجوى» بعد أن أعفانى من زواج الأميرة. حفظها الله وأمتعها وبارك له فيها.

وإننى اليوم أقضى أيامى بين كتابى وصلاتى، وأذوق السلام فى أهلى وولدى. لكم تغيرت بفضل قلبك الطاهر يا «نجوى».

ولست اليوم أحمل لريمة إلا الرحمة والرثاء. مسكينة هى أسأل الله أن يلطف بها فما أولى القلوب الثائرة بالرثاء. وهى تقيم فى جناح من الدار وحدها حتى لا أبعدها عن ولدها.

وقد أتيت بولدى عجيب إلى حضرة السلطان كما شاء فأرضاه حسن خطه وأعجبه إنشاء رسائله فجعله خازناً لكتبه. بارك الله للسلطان فى ملكه ورعيته.

وأما جميلة ابنتى فقد زوجها السلطان لوزيره الذى اخترته له ليحمل الأعباء عنى – صديقى وتلميذى كمال الدين وفقه الله إلى رضاه. وأما صديقى أبو النور فقد كان أحب شىء عندى أن يشاركنى فى سلامى وأمنى، ولكنه لم يرض أن يفارق ماهوش فهو لا يحب أن يدفن عظامه إلا فى ثراها.

ما أسعد ذلك الصديق الطيب بقلبه الكبير. إنه يعطى ولا يحب أن يأخذ. ويعاشر الناس كما يجدهم راضيًا. ولم أره يومًا يضيق بالحياة.

وقد أردت أن أكتب للناس قصتى فعكفت فى شهر رمضان أتسلى بها بين قيامى وسحورى. لعل كلمة منها تسرى عن الناس هما أو تدخل إلى قلبهم سرورًا أو لعل خطرة تخطر على قلبهم عند قراءتها تحمل إليهم حكمة أو عبرة.

وقد وقفتها على أهل جانبولاد وجعلت منها نسخًا فى مساجدها، لعل الله يجعل لى منها ثوابًا إذا ترحم الناس على كاتبها جيلا بعد جيل.

■■■